١٤

صفوة التفاسير

القسم الرابع عشر

تفسير السور الكريمة

الصافات - ص - الزمر - غافر

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الرابع عشر

تفسير السور الكريمة
الصافات - ص - الزمر - غافر

تأليف
محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير
مَعَالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي
وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية « التوحيد ، الوحي ، البعث والجزاء » شأنها كشأن سائر السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار ، الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله .. ثم تحدثت عن الجنّ وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة ، رداً على أساطير أهل الجاهلية في اعتقادهم بأن هناك قرابةً بين الله سبحانه وبين الجن ، وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له ، واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظاماً ورفاتاً .

* وتأكيداً لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة « المؤمن والكافر » والحوار الذي دار بينهما في الدنيا ، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كلٍ منهما بخلود المؤمن في الجنة ، وخلود الكافر في النار .

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء ، بدءاً بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل ، ثم قصة موسى وهارون ، ثم إلياس ولوط ، وذكرت بالتفصيل قصة « الإيمان والإبتلاء » في حادثة الذبيح إسماعيل ، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاءه الفداء ، تعليماً للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين .

* وختمت السورة الكريمة ببيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة ، وأنَّ العاقبة للمتقين .

التسمية : سميت السورة « سورة الصافات » تذكيراً للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار ، الذين لا ينفكون عن عبادة الله ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وبيان وظائفهم التي كلفوا بها .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والصافات صفاً* فالزاجرات زجراً* فالتاليات ذكراً .. إلى .. لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٦١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾

اللغـــة : ﴿الزاجرات﴾ الزجر : الدفع عن الشيء بقوةٍ أو صياح ، والزجرة : الصيحةُ من قولك : زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مارد﴾ عاتي متمرد ﴿ثاقب﴾ محرق شديد النفاذ ﴿واصب﴾ دائم لا ينقطع ﴿لازب﴾ ملتزق بعضه ببعض ﴿معين﴾ شراب نابع من العيون ﴿غولٌ﴾ الغول : كل ما يغتال العقل ويفسده قال أبو عبيدة : الغول ما يغتال العقل ويذهبه وأنشد قول ابن إياس :

وما زالتِ الخمر تغتالنا وتذهب بالأول فالأول[١]

﴿كأس﴾ قال أهل اللغة : العرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا : إناء وقدح قال الشاعر :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها[٢]

﴿يُنزفون﴾ يسكرون يقال : نُزف الرجل فهو نزيف ومنزوف إذا سكر قال الشاعر :

لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس النَّدامى كنتم آل أبجرا[٣]

التفسير : ﴿والصَّافات صفاً﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته ، إظهاراً لعظم شأنها ، وكبر فوائدها ، وتنبيهاً للعباد على جلالة قدرها والمعنى : أقسم بهذه الطوائف من الملائكة ، الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمرِ الله قال ابن مسعود : هم الملائكة تصف في السماء في العبادة والذكر صفوفاً ، وفي الحديث (ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا : وكيف يا رسول الله ؟ قال : يُتمون الصفوفَ المتقدمة ، ويتراصون في الصف)[٤] أقسم تعالى بالملائكة تنبيهاً على جلالة قدرهم ، وكثرة عبادتهم ، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله ، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة ، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار ، الذي دانت له الخلائق ، وخضعت لجلال هيبته الرقاب ، بما فيهم حَمَلَة العرش والملائكة الأطهار ﴿فالزاجرات زجراً﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب ، يسوقونه إلى حيث شاء الله ، من الزجر بمعنى السوق والحث ﴿فالتاليات ذكراً﴾ وصفٌ ثالثٌ للملائكة الأبرار ، إشادةً بذكر محاسنهم ومناقبهم العلوية أي وأقسمُ بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه ، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إنَّ إلهكم لواحد﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن إلهكم الذي تعبدونه ـ أيها الناس ـ إله واحدٌ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٠ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٣٧ . (٣) البحر ٧/ ٣٥٠ .
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه وانظر مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٤ .

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)﴾

لا شريك له ، قال مقاتل : إن الكفار بمكة قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد ؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً[1] ، ثم بيَّن تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما وما بينهما من المخلوقات والموجودات ، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع ، من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وربُّ المشارق﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف قال الطبري : واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه[2] ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب ، بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إنَّا زينَّا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب﴾ أي زينا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة ، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وحفظاً من كل شيطانٍ ماردٍ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد ، خارج عن طاعة الله قال قتادة : خلقت النجومُ لثلاث : رجوماً للشياطين ، ونوراً يُهتدى بها ، وزينةً للسماء الدنيا[3] وقال أبو حيان : خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار ، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين[4] ﴿لا يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي ، وقيل المعنى : لئلا يتسمَّعوا إلى الملأ الأعلى ﴿ويُقذفون من كل جانب﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهةٍ يقصدون السماء منها ﴿دحوراً﴾ أي طرداً لهم عن السماع لأخبار السماء قال الطبري : أي مطرودين ، من الدحر وهو الدَّفعُ والإِبعاد[5] ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع ﴿إلا من خطِف الخطفة﴾ أي إلاَّ من اختلس شيئاً مسارقةً ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي فلحقه شهاب مضيءٌ ، نافذ بضوئه وشعاعه فأحرقه قال المفسرون : قد يخطف الشيطان المارد خطفةً سريعة مما يدور في الملأ الأعلى ، فيتبعه شهابٌ يلاحقه في هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقاً قال القرطبي : وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت ، لأن الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها ، وهذه الشهب تُرى حركاتها[6] ﴿فاستفتهم﴾ أي فسلْ يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث ﴿أهم أشدُّ خلْقاً أمْ منْ خلقنا﴾ ؟ أي أيهم أقوى بُنيةً وأشد خلْقاً هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة ؟ ﴿إنّا خلقناهم من طينٍ لازب﴾ أي من طينٍ رخوٍ لزج لا قوة فيه قال الطبري : وإنما وصفه

(١) تفسير القرطبي ٦٢/١٥ . (٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٤ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٦٤ .
(٤) البحر المحيط ٣٥٢/٧ . (٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٧ . (٦) تفسير القرطبي ٦٨/١٥ .

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

باللزوب لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء ، وكذلك خُلِق ابنُ آدم من ترابٍ وماء ، ونار وهواء ، والترابُ إذا خُلط بماءٍ صار طيناً لازباً[١] ، والغرضُ من الآية إقامةُ البرهان على إعادة الإنسان ، فالذي خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق ، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد الفناء ﴿بـل عجبتَ ويسخـرون﴾ أي بل عجبتَ يا محمد من تكذيبهم للبعث مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة ، وهم يسخرون منك ومما تقول لهم في ذلك قال أبو السعود : المعنى عجبتَ من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث ، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث[٢] ﴿وإذا ذُكِّروا لا يذكـرون﴾ أي وإذا وُعظوا بالقرآن وخوِّفوا به ، لا يتعظـون ولا يتدبـرون ﴿وإذا رأوا آيـةً يستسخرون﴾ أي وإذا رأوا آية باهرة ، أو معجزة قاهرة تدل على صدقك كانشقاق القمر ، وتكليم الشجر والحجر ، يبالغون في السخرية أو يدعون غيرهم للسخرية والاستهزاء ﴿وقالـوا إن هـذا إلا سحـرٌ مبيـن﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضـح بيِّـن قال في البحـر : والإشـارة بـ « هـذا » إلى ما ظهـر على يديه عليه السـلام من الخـارق المعجز[٣] ﴿أئـذا متنـا وكنَّـا تُـراباً وعظاماً أئنـا لمبعـوثـون﴾ الاستفهـام للإنـكار والاستهـزاء أي أئـذا أصبحت أجسادنا بالية ، وتفتَّت أجزاؤ ها إلى تراب وعظام سوف نبعث ؟ ﴿أوَ آباؤنـا الأولـون﴾ أي أو آباؤ نـا الأولون كذلك سيُبعثون ؟ قال الزمخشـري : أي أيبعث أيضاً آباؤ نا ؟ وهـذا زيادة في استبعـاد الأمر ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثُهم أبعدُ وأبطل[٤] ﴿قـل نعـم وأنتـم داخـرون﴾ أي قل لهم نعم تُبعثون وأنتم صاغرون ﴿فإنمـا هـي زجرةٌ واحدةٌ﴾ أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور ﴿فإذا هـم ينظـرون﴾ أي فإذا هم قيامٌ في أرض المحشر ينظر بعضهم إلى بعض قال القرطبي : الزجرةُ : الصيحةُ وهي النفخةُ الثانية ، وسميت زجرة لأن مقصودها الزجر ، كزجر الإبل ، والخيل عند السَّوق[٥] . . ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهـم أهـوال القيامـة فقـال ﴿وقالـوا يا ويلنـا هـذا يـومُ الديـن﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا هو يوم الجزاء والحساب ! ! فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿هـذا يـومُ الفصـلِ الذي كنتـم به تكذبـون﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به قال البيضاوي : الفصلُ : القضاءُ والتفريق بين المحسن والمسيء[٦] ﴿ أحشُـروا الذيـن ظلمـوا وأزواجهـم﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين ،

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٨ . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٦ . (٣) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٥٥ .

(٤) تفسير الكشاف ٤/ ٣٠ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٧٢ . (٦) تفسير البيضاوي ٢/ ١٣٨ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾

كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي : الزاني مع الزاني ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، والسارق مع السارق[١] وقال ابن عباس : اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات ، وعنه المراد به أشباههم من العصاة[٢] ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام ، وذلك زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي فعرفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها ، وفي لفظ ﴿اهدوهم﴾ تهكم وسخرية ، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم سيسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم ، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين ؟ قال المفسرون : هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر « نحن جميعٌ منتصر »[٣] وأصل ﴿تناصرون﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، قال تعالى ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي بل هم اليوم أذلاء منقادون ، عاجزون عن الانتصار ، سواءمنهم العابدون والمعبودون ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون قال أبو السعود : وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال[٣] ﴿قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبوعين : إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحقِّ ، وتزينون لنا الباطل ، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى[٥] قال الطبري : أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق ، فتخدعوننا بأقوى الوجوه ، قال : واليمين في كلام العرب : القوة والقدرة كقول الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجدٍ تلقَّاها عرابةُ باليمين[٦]

وقيل : المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً[٧] ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ أي يقول لهم الرؤساء : لم نحملكم نحن على الضلال ولم نمنعكم من الإيمان ، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم قال ابن كثير : أي ليس الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرةً للإيمان ، قابلةً للكفر والعصيان[٨] ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على متابعتنا ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد

(١) تفسير القرطبي ١٥/٧٣ وعزاه إلى عمر بن الخطاب (٢) نقلها عنه صاحب البحر المحيط ٧/٣٥٦ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٧٤ .
(٤) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٦٨ . (٥) هذا القول حكاه ابن كثير عن السدي وهو الأظهر . (٦) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢ .
(٧) هذا المعنى ذكره في الظلال وهو معنى لطيف لكن ليس له ما يعضده من جهة اللغة . (٨) مختصر ابن كثير ٣/١٧٧ .

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

للعصيان ، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فحقَّ علينا قول ربنا﴾ أي فوجب علينا جميعاً وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إنا لذائقون﴾ أي فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة ﴿فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾ أي فزينا لكم الباطل ، ودعوناكم إلى الغيّ لأننا كنا على غيٍّ وضلال ، قال تعالى مخبراً عن حالهم ﴿فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب ، كما كانوا مشتركين في الغواية ، ولكنْ كما قال تعالى ﴿ولن ينفعكم اليوم إذْ ظلمتُم أنكم في العذاب مشتركون﴾ ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين ، ثم بيَّن تعالى السبب فقال ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا اللهُ يستكبرون﴾ أي إذا قيل لهم قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾ يتكبَّرون ويتعظَّمون ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون﴾ ؟ أي ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد : أنترك عبادة الأوثان لقول شاعرٍ مجنون ؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل جاء بالحقِّ وصدَّق المرسلين﴾ أي ليس الأمرَ كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبلج ، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله قال أبو حيان : جمع المشركون بين إنكار الوحدانية ، وإنكار الرسالة ، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم « شاعر مجنون » فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ما ينظم به المعاني الغريبة ، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة ، ومن كان مجنوناً لا يصل إلى شيء من ذلك ، فكلامهم تخليط وهذيان[1] ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذاب ﴿وما تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي لا تُعاقبون إلا جزاء مثل عملكم قال الصاوي : لأن الشر يكون جزاؤه بقدره ، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة[2] . . ولمَّا ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم ، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم ، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيباً وترهيباً فقال ﴿إلاَّ عبادَ اللهِ المُخْلَصين﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المُخلَصين الموحدين ، فإنهم لا يذوقون العذاب ، ولا يناقشون الحساب ، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم ، يُجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . ثم أخبر عن جزائهم فقال ﴿أولئك لهم رزقٌ معلوم﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساءً كما قال تعالى ﴿ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشياً﴾ وقال أبو السعود : معلوم الخصائص من حسن المنظر ، ولذة الطعم ، وطيب الرائحة[3] ،

(١) البحر المحيط ٧/٣٥٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٣٧ . (٣) تفسير أبي السعود ٤/٢٦٨ .

مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

ثم فسر الرزق بقوله ﴿فواكه وهم مكرمون﴾ أي فواكهُ متنوعة من جميع ما يشتهون ، وهم في الجنة معزَّزون مكرَّمون ، وخصَّ الفواكه بالذكر لأن كل ما يُؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ ﴿في جنات النعيم﴾ أي في رياضٍ وبساتين يتنعمون فيها ﴿على سُرُرٍ متقابلين﴾ أي على أسرةٍ مكلَّلة بالدر والياقوت ، تدور بهم كيف شاءوا قال مجاهد : ﴿متقابلين﴾ أي لا ينظر بعضُهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحاباً[١] ﴿يطافُ عليهم بكأسٍ من معين﴾ لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب أي يطوف عليهم خدم الجنة بكأسٍ من الخمر من نهر جارٍ خارج من عيون الجنة قال الصاوي : وصف به خمر الجنة لأنه يجري كالماء النابع[٢] وقال ابن عباس : كل كأسٍ في القرآن فهي الخمر ، والمعين هي الجارية[٣] ﴿بيضاء لذةٍ للشاربين﴾ أي هذه الخمر بيضاء ذات لذةً للشاربين ، يلتذ بها من شربها قال الحسن : خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لا فيها غولٌ ولا هم عنها يُنْزفون﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها ، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا قال ابن كثير : نزَّه الله سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا ، من صداع الرأس ، ووجع البطن ، وذهاب العقل ، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها ، والمراد بالغول هنا صُداع الرأس قاله ابن عباس ، وقال قتادة : هو صداع الرأس ووجع البطن[٤] وتلك أجمل أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشُّرَّاب ، وتنفي أكداره وأضراره ، فلا خُمَار يصدع الرءوس ، ولا سكر ولا عربدة يُذهب لذة الاستمتاع كما هي الحال في خمرة الدنيا ﴿وعندهم قاصراتُ الطرف﴾ أي وعندهم الحور العين ، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم حياءً وعفةً ، قال ابن عباس: ﴿قاصرات الطرف﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن[٥] ﴿عين﴾ أي وهنَّ مع العفة واسعات جميلات العيون قال الطبري : أي نُجل العيون جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال ، وهي أحسن ما تكون من العيون[٦] ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ أي كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه قاله ابن عباس واستشهد بقوله تعالى ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾[٧] وقال الحسن : ﴿المكنون﴾ المصون الذي لم تمسَّه الأيدي . . والغرضُ أنهنَّ مع هذا الجمال الباهر ، مصونات كالدُّر في أصدافه ، مع رقةٍ ولطفٍ ونعومة ﴿كأنهنَّ بيضٌ مكنون﴾ لا تبتذله الأيدي ولا العيون ، والعربُ تشبِّه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها قال أبو حيان : ذكر تعالى في هذه الآيات أولاً الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام ، وثانياً الإكرام وهو ما تتلذذ به

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٧٧ . (٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٣٧ . (٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٩ .
(٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٧٩ . (٦) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٦ . (٧) تفسير القرطبي ١٥/ ٨١ .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾

النفوس ، ثم ذكر المحل وهو جنات النعيم ، ثم لذة التآنس والاجتماع ﴿على سررٍ متقابلين﴾ وهو أتم للسرور وآنس ، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس ولا يتناولونها بأنفسهم ، ثم ختم باللذة الجسدية ـ أبلغ الملاذ ـ وهي التآنس بالنساء[1] ثم أخبر تعالى عما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور ، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع ، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث فقال ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي جلسوا يتحدثون عما جرى لهم في الدنيا ، يتذاكرون نعيمهم وحال الدنيا وثمرة الايمان ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ أي قال قائل من أهل الجنة إني كان لي في الدنيا صديقٌ وجليس ينكر البعث ﴿يقول أئنك لمن المصدِّقين﴾ أي يقول لي أتصدِّق بالبعث والجزاء ؟ ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾ ؟ أي هل إذا متنا وأصبحنا ذراتٍ من التراب وعظاماً نخرة ، أئنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا ؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ﴿قال هل أنتم مطَّلعون﴾ ؟ أي قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة : هل أنتم مطَّلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ؟ قال تعالى ﴿فاطَّلع فرآه في سواء الجحيم﴾ أي فنظر فأبصر صاحبه الكافر في وسط الجحيم يتلظى سعيرها ﴿قال تاللهِ إن كدتَ لتُردين﴾ أي فخاطبه المؤمن شامتاً وقال له : واللهِ لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك ﴿ولولا نعمةُ ربِّي لكنتُ من المحضرين﴾ أي ولولا فضلُ الله عليَّ بتثبيتي على الايمان ، لكنتُ معك في النار محضراً ومعذباً في الجحيم ، ثم يخاطبه مستهزءاً ساخراً كما كان ذلك الكافر يستهزىء به في الدنيا ﴿أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ ؟ أي هل لا تزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتةً واحدة ، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ؟ وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه التشفي من ذلك القرين الكافر ، والتحدث بنعمة الله عليه قال تعالى ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أي إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة لهو الفوز العظيم ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ أي لمثل هذا الجزاء الكريم يجب أن يعمل العاملون ويجتهد المجتهدون . قال المفسرون : أشارت الآيات الكريمة إلى قصة شريكين كان لهما ثمانية آلاف درهم ، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر في التجارة والنظر الى أمور الدنيا ، وكان الآخر مقبلاً على تكثير ماله ،

(١) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٥٩ .

فانفصل من شريكه لتقصيره ، وكان كلما اشترى داراً أو جارية أو بستاناً أو نحو ذلك عرضه على المؤمن وفخر عليه بكثرة ماله ، وكان المؤمن إذا سمع ذلك يتصدَّق بنحوٍ من ذلك ليشتري له به قصراً في الجنة ، فإذا لقيه صديقه قال ما صنعت بمالك ؟ قال : تصدقت به للّه ! فكان يسخر منه ويقول: أئنك لمن المصدِّقين ؟ فكان أمرهما ما قصَّ الله علينا في كتابه العزيز[1] .

البـَــلاَغـَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ لأن السخرية في مقابلة التعجب .

٢ ـ التأكيد بإن واللام ﴿إنَّ إلهكم لواحد﴾ ومقتضى الكلام يقتضيه لإنكار المخاطبين للوحدانية .

٣ ـ الأسلوب التهكمي ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ وردت الهداية بطريق التهكم ، لأن الهداية تكون إلى طريق النعيم لا الجحيم .

٤ ـ الإيجاز بالحذف ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾ أي قولوا لا إله إلا الله ، وحذف لدلالة السياق عليه .

٥ ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ والأصل إنهم لذائقو وإنما التفت لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم .

٦ ـ الكناية ﴿قاصرات الطرف﴾ كنَّى بذلك عن الحور العين لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

٧ ـ التشبيه المرسل والمجمل ﴿كأنهن بيضٌ مكنون﴾ حذف منه وجه الشبه فأصبح مجملاً .

٨ ـ مراعاة الفواصل وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿شهاب ثاقب ، عذاب واصب ، طين لازب﴾ إلى آخره .

* * *

قال الله تعالى : ﴿أذلك خيرٌ نُزلاً أم شجرة الزقوم . . إلى . . ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ من آية (٦٢) إلى آية (١١٣)

المُنَـاسَـبَة : لما ذكر تعالى ما أعده للأبرار في دار النعيم ، ذكر ما أعده للأشرار في دار الجحيم ، ليظهر التمييز بين الفريقين ، ثم ذكر قصة «نوح» وقصة «إبراهيم» وما فيهما من العظات والعبر للمعتبرين .

اللغــَــة : ﴿نُزلاً﴾ النُّزُل : الضيافة والتكرمة ، وأصله ما يُعد للأضياف من الطعام والشراب وغيرهما ﴿طلعها﴾ ثمرها ، سُمي طلعاً لطلوعه ﴿شوباً﴾ خلطاً ومزاجاً من شاب الطعام يشوبه

(١) انظر الطبري ٢٣/ ٣٨ ومختصر ابن كثير ٣/ ١٨١ ففيهما تفصيلٌ للقصة .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾
طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ
حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾

إذا خلطه بشيء آخر ﴿يُهرعون﴾ يُسرعون قال الفراء : الإهراع : الإسراع مع رعدة ، وقال المبرِّد : المُهرع : المستحثُّ يقال :جاء فلان يُهرعون إلى النار، إذا استحثَّه البرد إليها[١] ﴿شيعته﴾ شيعة الرجل أعوانه وأنصاره ، ومن سار على طريقته ومنهاجه ﴿إفكاً﴾ كذباً وباطلاً ﴿سقيم﴾ مريض وعليل ﴿راغ﴾ راغ إليه : أقبل عليه ومال نحوه خفيةً وأصله من الميل قال الشاعر :

ويُريك من طَرف اللسان حلاوةً ويروغ فيك كما يروغ الثعلب[٢]

﴿يزِفُّون﴾ يُسرعون في مشيهم ﴿تلَّه﴾ صرعه وكبَّه على وجهه .

التفسير : ﴿أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزقوم﴾ أي أنعيم الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شجرة الزقوم التي في جهنم ؟ أيها خيرٌ وأفضل ؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة ، وشجرة الزقوم طعام أهل النار ، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم فتنةً وابتلاءً لأهل الضلالة قال المفسرون : لما سمع الكفارُ ذكر شجرة الزقوم قالوا : كيف يكون في النار شجرة ، والنارُ تُحرق الشجر؟وكان أبو جهل يقول لأصحابه : أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزُّبد والتمر ، ثم يأتيهم به ويقول : تزقَّموا ، هذا الذي يخوفنا به محمد[٣] ﴿إنها شجرةٌ تخرُج في أصل الجحيم﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طلعها كأنه رءوسُ الشياطين﴾ أي ثمرها وحملها كأنه رءوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة قال ابن كثير : وإنما شبهها برءوس الشياطين ، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر[٤] ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلىء منها بطونهم ، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة ، وفي الحديث(لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن تكون طعامه)[٥] ؟ ﴿ثم إنَّ لهم عليها لشوباً من حميم﴾ أي ثم إن لهم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجاً من ماء حار قد انتهت حرارته يشاب به الطعام - أي يخلط - ليجمع لهم بين مرارة الزقوم ، وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم قال مقاتل : الحميم خارج الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم وقال أبو السعود : الزقوم والحميم نُزل يُقدَّم إليهم قبل دخولها[٦] ﴿إنهم ألفَوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿فهم على

(١) القرطبي ١٥/ ٨٨ . (٢) نفس المرجع السابق ١٥/ ٩٤ . (٣) انظر تفسير الطبري ٢٣/ ٤١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٢ .
(٥) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . (٦) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧١ .

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾
وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

آثارهم يُهرعون﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان قال مجاهد : شبَّهه بالهرولة كمن يُسرع إسراعاً نحو الشيء ﴿ولقد ضلَّ قبلهم أكثر الأولين﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنْذرين﴾ أي أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يخوفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغيّ والضلال ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المُنذرين﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين ؟ ألم نهلكهم فنصَيرهم عبرةً للعباد ؟ ﴿إلاّ عباد الله المُخلصين﴾ أي لكنْ عبادَ الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب . . ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبون﴾ اللام موطئة للقسم أي وبالله لقد استغاث بنا نوحٌ لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له ، وصيغة الجمع ﴿المجيبون﴾ للعظمة والكبرياء قال الصاوي : ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص : قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة الذبيح اسماعيل ، وقصة موسى وهارون ، وقصة إلياس ، وقصة لوط ، وقصة يونس ، وكل ذلك تسلية له ﷺ وتحذيراً لمن كفر من أمته[١] ﴿ونجيناه وأهله من الكرْب العظيم﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه ـ أهلُه وأتباعُه ـ من الغرق قال المفسرون : وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه قال ابن عباس : أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح[٢] قال في التسهيل : وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان ، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة ، تناسل الناسُ من أولاده الثلاثة « سام ، وحام ، ويافث »[٣] ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سلامٌ على نوحٍ في العالمين﴾ أي سلام عاطر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد ، نبقي له الذكرَ الجميل إلى آخر الدهر ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله ، كامل الإيمان واليقين قال في حاشية البيضاوي : علَّل هذه التكرمة السنية بكونه من أُولي الإحسان ، ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ، إظهاراً لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره ، وجعل الدنيا مملوءةً من ذريته تبقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين[٤] ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٤٠ . (٢) تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٦٤ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٢ .
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ١٥٧ .

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾

آخرهم ، فلم تبق منهم عينٌ تطرف ولا ذكرٌ ولا أثر . . ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال **﴿وإنَّ من شيعته لإبراهيم﴾** أي وإن من أنصار نوح واعوانه وممن كان على منهاجه وسنته إبراهيم الخليل ،قال البيضاوي : وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وكان بينهما نبيان هما « هود » و « صالح » صلوات الله عليهم أجمعين[١] **﴿إذ جاء ربَّه بقلب سليم﴾** أي حين جاء ربه بقلبٍ نقي طاهر ،مُخلص من الشك والشرك **﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾** أي حين قال لأبيه آزر وقومه موبخاً لهم : ما الذي تعبدونه من الأوثان والأصنام ؟ وهو إنكار لهم وتوبيخ **﴿أئفكاً آلهةً دون الله تريدون﴾** ؟ أي أتعبدون آلهة من دون الله من أجل الإفك والكذب والزور ؟ وإنما قدَّم المفعول لأجله **﴿أئفكاً﴾** على المفعول به لأجل التقبيح عليهم بأنهم على إفكٍ وباطل في شركهم والأصل : أتريدون آلهة من دون الله إفكاً ؟ قال القرطبي : والإفكُ أسوأ الكذب وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب[٢] **﴿فما ظنكم بربِّ العالمين﴾** استفهام توبيخ وتحذير أيْ أيَّ شيءٍ تظنون بربِّ العالمين ؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب وقد عبدتم غيره ؟ قال الطبري : المعنى أيَّ شيءٍ تظنون أيها القوم أنه يصنع بكم إن لقيتموه وقد عبدتم غيره[٣] ؟ **﴿فنظر نظرةً في النجوم * فقال إني سقيم﴾** لما وبخهم على عبادة غير الله أراد أن يريهم أن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، وأراد أن يخلو بها حتى يكسرها ، فاحتال للبقاء وعدم الخروج معهم إلى العيد ، فنظر في السماء - على عادتهم حيث كانوا نجامين - وأوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غداً فقال : إني سقيم أي سأمرض إن خرجتُ معكم ، وهذا ليس بكذبٍ وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي كما ورد (إنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب) أو أراد أنه سقيم القلب من عبادتهم للأوثان[٤] **﴿فتولَّوا عنه مُدْبرين﴾** أي فتركوه إعراضاً عنه وخرجوا إلى عيدهم **﴿فراغَ إلى آلهتهم﴾** أي فلما ذهبوا وتركوه توجه إلى الأصنام ومال إليها في خفية قال ابن كثير : أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعةٍ واختفاء[٥] **﴿فقال ألا تأكلون﴾** ؟ أي ألا تأكلون من هذا الطعام ؟ قال ابن كثير : وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتُبارك لهم فيه[٦] **﴿ما لكم لا تنطقون﴾** ؟ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي قال أبو حيان : وعرضُ الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء ، لأنها منحطةٌ عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها[٧] **﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾** أي

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤١ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٩٢ . (٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٥ . (٤) انظر أقوال المفسرين في القرطبي ١٥/ ٩٣ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٥ . (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٥ . (٧) البحر المحيط ٧/ ٣٦٦ .

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

فأقبل على الأصنام مستخفياً يحطمها بيمينه بفأس كان معه قال البيضاوي : وتقييدُه باليمين للدلالة على قوته ، وقوةُ الآلة تستدعي قوة الفعل[١] وقال القرطبي : خصَّ الضرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشد[٢] ﴿فأقبلوا إليه يَزفون﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين كأن بعضهم يدفع بعضاً ، فلما أدركوه قالوا : ويحكَ نحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ فأجابهم موبخاً ﴿قال أتعبدون ما تنحتون﴾ ؟ أي أتعبدون أصناماً نحتموها بأيديكم ، وصنعتموها بأنفسكم ؟ ﴿واللهُ خلقكم وما تعملون﴾ أي واللهُ جل وعلا خلقكم وخلق عملكم ، وكلُّ الأشياء مخلوقة له ، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، أليس لكم عقل أيها الناسُ ؟ قال ابن جزي : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ما﴾ مصدرية والمعنى : اللهُ خلقكم وأعمالكم ، وهذه الآية عندهم قاعدةٌ في خلق أفعال العباد ، وذهب بعضهم إلى أن ﴿ما﴾ موصولة بمعنى الذي والمعنى : خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها ، وهذا أليقُ بسياق الكلام ، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام[٣] . ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ أي ابنوا له مكاناً وأضرموه ناراً ثم ألقوه في تلك النار المتأججة المستعرة قال المفسرون : لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة ، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة ، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصاراً لأصنامهم وآلهتهم ﴿فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه ، فنجيناه من النار وجعلناها برداً وسلاماً عليه ، وجعلناهم الأذلين المقهورين لأنه لم ينفذ فيه مكرهم ، ولا كيدهم ﴿وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين﴾ لما نجاه الله من النار ، وخلّصه من كيد الفجار ، هجر قومه واعتزلهم والمعنى إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام[٤] ﴿ربِّ هبْ لي من الصالحين﴾ أي ارزقني ولداً من الصالحين يؤنسني في غُربتي قال ابن كثير : يريد أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم[٥] ﴿فبشرناه بغلامٍ حليم﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلامٍ يكون حليماً في كبره قال أبو السعود : جمع الله له فيه بشارات ثلاث : بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحُلم ، وأنه يكون حليماً ، لأن الصغير لا يوصف بذلك ، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال ﴿يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرْ ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[٦] !! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو « اسماعيل » لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً

(١) البيضاوي ٢/١٤٢ . (٢) القرطبي ١٥/ ٩٤ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٣ .
(٤) القرطبي ١٥/ ٩٧ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٦ (٦) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٣ .

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

من الصالحين﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل[١] ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي فلما ترعرع وشبَّ وبلغ السنَّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿قال يا بُنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي إني أُمرت في المنام أنْ أذبحك، قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيٌ وتلا الآية وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً ورقوداً، لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[٢] ﴿فانظر ماذا ترى﴾؟ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ قال ابن كثير: وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلَده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه[٣]. فإن قيل: لم شاوره في أمرٍ هو حتمٌ من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطِّن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب ﴿قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابراً إن شاء الله، وهو جواب من أُوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فلما أسلما وتلَّه للجبين﴾ أي فلما استسلما - الأب والابن - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه قال ابن عباس: ﴿تلَّه للجبين﴾ أكبَّه على وجهه ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا﴾ هذه جواب «لمَّا» والواو مقحمة أي ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذْتَ ما أُمرت به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، روي أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبةٌ من قلبه بمحبة ولده، فأُمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وقدَّم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الإبن: يا أبتِ اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيءٌ من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحدَّ شفرتك وأسرعْ بها على حلقي ليكون الموت أهونَ عليَّ، وإذا أتيتَ أمي فاقْرئْها مني السلام، وإن رأيتَ أن تردَّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العونُ أنت يا بني على أمر الله[٤] ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليلٌ لتفريج الكربة أي كما فرجنا شدتك كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ أي إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق ﴿وفديناه بذبحٍ

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوة والأنبياء» والأدلة على ذلك ص ١٧٣ وانظر ابن كثير ٣/ ١٨٦ ففيه بحث لطيف ونفيس.
(٢) القرطبي ١٠٢/١٥. (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٦. (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٤٣/٣.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١
وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾

عظيم﴾ أي وفديناه بكبشٍ عظيم من الجنة فداءً عنه قال ابن عباس : كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً[1] **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾** أي وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين **﴿سلام على إبراهيم﴾** أي سلام منا على إبراهيم عاطرٌ كريم **﴿كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾** كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان **﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾** أي وبشرناه بغلامٍ آخر بعد تلك الحادثة هو إسحق الذي سيكون نبياً قال ابن عباس : بُشِّرَ بنبوته حين وُلد ، وحين نُبِّىء[2] ، وتكاد تكون الآية صريحةً في أن الذبيح هو « إسماعيل » لا «إسحاق» **﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾** أي أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين **﴿ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبين﴾** أي ومن ذريتهما محسنٌ ومسيء قال الطبري : المحسنُ هو المؤمن ، والظالم لنفسه هو الكافر[3] وقال أبو حيان : وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمدﷺ وفيها دليل على أن البرَّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة[4] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الأسلوب التهكمي **﴿أذلك خيرٌ نُزلاً أم شجرة الزقوم﴾** ؟ التعبير بـ« خيرٌ » تهكم بهم .

٢ ـ الجناس الناقص **﴿المُنذِرين . . والمُنْذَرين﴾** لأن المراد بالأول الرسل ، وبالثاني الأمم .

٣ ـ التشبيه **﴿طلعُها كأنه رءوس الشياطين﴾** أي في الهول والشناعة ويسمى تشبيهاً مرسلاً مجملاً .

٤ ـ الاستعارة التبعية **﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾** شبَّه إقباله على ربه مخلصاً بقلبه بمن قدم على الملك بتحفةٍ ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول ففيه استعارة تبعية .

٥ ـ الطباق بين **﴿محسن . . وظالم﴾** .

٦ ـ جناس الاشتقاق بين **﴿ابنوا . . بنياناً﴾** .

٧ ـ الكناية اللطيفة **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾** كنَّى به عن الثناء الحسن الجميل .

٨ ـ مراعاة الفواصل مثل **﴿وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم﴾** الخ وهو من المحسنات البديعية ، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال ، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالاً .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٩ . (٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٧ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٣٧٢ .

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

المناسبة : لما ذكر قصة الخليل إبراهيم ، وقصة الذبيح والفداء ، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء ، كموسى وهارون ، ويونس ولوط ، وما في هذه القصص من العظات والعبر ، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين .

اللغة : ﴿أبق﴾ هرب ﴿المشحون﴾ المملوء ﴿ساهم﴾ قارع أي ضرب القُرعة قال المبرّد : وأصله من السهام التي تُجال ﴿المدحضين﴾ المغلوبين ، وأصله من الزلق ، يُقال : دَحضت حجته وأدحضها اللهُ أي غُلب وهُزم قال الشاعر :

قتلنا المُدْحضين بكلِّ فجٍّ فقد قرَّت بقتلهم العُيون[1]

﴿مليم﴾ آتٍ بما يُلام عليه ﴿العَرَاء﴾ الأرض الفيحاء لا شجر فيها ، ولا معلم ، قال الفراء : العراءُ المكانُ الخالي ﴿يقطين﴾ القرعُ المعروف والمسمَّى بالدباء ، قال الجوهري : اليقطين ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه[2] ﴿ساحتهم﴾ الساحةُ : الفناء .

التفسير : ﴿ولقد مننَّا على موسى وهارون﴾ اللام موطئة للقسم أي وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بأنواع النعم والمنافع الدينية والدنيوية ومنها نعمة النبوة والرسالة ﴿ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم﴾ أي ونجيناهما وقومهما ـ بني إسرائيل ـ من الغم والمكروه العظيم ، وهو استعباد فرعون إياهم مع التعذيب بقتل الأبناء ، واستحياء النساء ﴿ونصرناهم فكانوا هم الغالبين﴾ الضمير يعود على موسى وهارون وبني إسرائيل أي ونصرناهم على أعدائهم ـ الأقباط ـ فكانوا الغالبين عليهم بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾ أي أعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه ، الكامل في حدوده وأحكامه ، وهو التوراة ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ أي وهديناهما الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه قال الطبري : وهو الإسلام دينُ الله الذي ابتعث به أنبياءه[3] ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي تركنا عليهما الثناء الجميل ، والذكر الحسن ﴿سلام على موسى وهارون﴾ أي سلام منا على موسى وهارون ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين﴾ أي كذلك نفعل بمن أحسن وأخلص العبودية لله ﴿وإنَّ إلياس لمن المرسلين﴾ أي وإنَّ إلياس ـ أحد أنبياء بني إسرائيل ـ لمن الرسل الكرام الذين أرسلتُهم لهداية الخلق قال أبو السعود : هو إلياس بن ياسين

(١) تفسير القرطبي ١٢٣/١٥ . (٢) انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط . (٣) تفسير الطبري ٥٨/٢٣ .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ
عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا
لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾
وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

من سبط هارون أخي موسى[١] ﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ أي حين قال لقومه من بني إسرائيل ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ؟ ﴿أتدعون بعْلاً وتذرون أحسنَ الخالقين﴾ أتعبدون هذا الصنم ـ المسمَّى بعلاً ـ وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين ؟ ﴿اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأولين﴾ أي تتركون عبادة أحسن الخالقين ، الذي هو ربكم وربُّ آبائكم السابقين قال القرطبي : و« بعل » اسم صنم لهم كانوا يعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك ، والمعنى : أتدعون رباً اختلقتموه وهو هذا الصنم ، وتتركون أحسن من يقال له خالق وهو « الله » ربكم وربَّ آبائكم الأولين[٢] ؟ ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ أي فكذبوا نبيَّهم فإنهم لمحضرون في العذاب ﴿إلا عباد الله المُخلصين﴾ أي لكنْ عباد الله المؤمنين فإنهم نجوا من العذاب ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي تركنا على إلياس الثناء الحسن الجميل إلى يوم الدين ﴿سلامٌ على إل ياسين﴾ أي سلام منا عليه وعلى آل ياسين قال المفسرون : المراد بـ﴿إلياسين﴾ هو إلياس ومن آمن معه جمعوا معه تغليباً كما قالوا للمهلَّب وقومه المهلَّبون[٣] ، واختار الطبري أنه اسم لإلياس فيقال : إلياس ،وإل ياسين مثل ميكال وميكائيل ، وأن له اسمين فيسمى « إلياس »و﴿إل ياسين﴾[٤] ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين* إنه من عبادنا المؤمنين﴾ تقدم تفسيره ، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه ، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان ، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات ، فلذلك استحقوا التحية والسلام ، والذكر الحسن بين الأنام ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴿وإنَّ لوطاً لمن المرسلين﴾أي وإنَّ لوطاً لأحد رسلنا لهداية قومه﴿إذ نجيناه وأهله أجمعين﴾ أي اذكر حين خلصناه من العذاب هو ومن امن معه من أهله وأولاده ﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي إلا امرأته الكافرة فإنها لم تؤمن فكانت من الباقين في العذاب ومن الهالكين ﴿ثم دمَّرنا الآخرين﴾ أي ثم أهلكنا المكذبين من قومه أشدَّ إهلاك وأفظعه ، وذلك بقلب قراهم حيث جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، ولهذا عبَّر بـ ﴿دمَّرنا﴾ ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل﴾ أي وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم في أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ أي أتشاهدون ذلك ثم لا تعتبرون ؟ ألا تخافون أن يصيبكم

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ١١٦ . (٣) انظر تفسير الجلالين ٣/ ٣٤٦ . (٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٦١ .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

مثل ما أصابهم ؟ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ أي وإن يونس لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه ﴿إذْ أبق إلى الفُلك المشحون﴾ أي اذكر حين هرب إلى السفينة المملوءة بالرجال ﴿فساهم فكان من المُدحضين﴾ أي فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر قال المفسرون : إن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه ، فأنذرهم بعذاب قريب ، وغادرهم مغضباً لأنهم كذبوه ، فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة ، فناوأتها الرياح والأمواج ، فقال الملاحون : ههنا عبدٌ أبق من سيده ، ولا بدَّ لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق ، فاقترعوا فخرجت القُرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿فالتقمه الحوتُ وهو مليم﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها ، وتركِ قومه مغاضباً لهم ، وخروجه بغير إذنٍ من ربه ﴿فلولا أنه كان من المسبِّحين﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته ﴿لَلبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون﴾ أي لبقي في بطنِ الحوت إلى يوم القيامة ، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينج أبداً ، ولكنه سبَّح اللهَ واستغفره وناداه وهو في بطن الحوت بقوله ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين﴾ فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل ، بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل ، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء : أوحى الله تعالى إلى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجناً ، ولم أجعله لك طعاماً ، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء[١] ﴿وأنبتنا عليه شجرةً من يقْطين﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس ، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزي : وإنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق ، وبرد الظل ، والذبابُ لا يقربه ، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب[٢] ، وكان هذا من تدبير الله ولطفه ، فلما استكمل قوته وعافيته ردَّه الله إلى قومه ولهذا قال ﴿وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألفٍ بل يزيدون قال المفسرون : كانوا مائة وعشرين ألفاً وقيل : وسبعين ألفاً ، وهم أهل نينوى بجهة الموصل ، و « أو » بمعنى بل أي بل يزيدون ﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وُعدوا به فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم قال في التسهيل : روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم ، وفرقوا بينهم وبين الأمهات ، وناحوا وتضرعوا إلى الله ، فرفع الله العذاب عنهم[٣] .. ولما

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٧ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٦ . (٣) تفسير التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٦ .

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿فاستفتهم ألربك البناتُ ولهم البنون﴾ ؟ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة ـ على سبيل التوبيخ والتقريع لهم ـ كيف زعموا أن الملائكة بنات الله ، فجعلوا للّهِ الإناث ولأنفسهم الذكور ؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضون نسبتهنَّ لأنفسهم ، فكيف يرضونها لله عز وجل ويختصون بالبنين ؟ ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ توبيخٌ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم ، وجعلناهم إناثاً وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا مثل هذا البهتان ؟ ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولدَ اللهُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي وهم كاذبون قطعاً في قولهم الملائكة بناتُ الله قال أبو السعود : والآية استئناف مسوقٌ لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح ، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم دليلٌ قطعاً[1] ﴿اصطفى البنات على البنين﴾؟ توبيخٌ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البناتِ وفضلهن على البنين ؟ ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ ؟ تسفيهٌ لهم وتجهيل أيْ أيُّ شيء حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر ؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين على زعمكم ؟ ﴿أفلا تذكَّرون﴾ ؟ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام ؟ قال أبو السعود : أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهة العقل ، فإنه مركوزٌ في عقل كل ذكي وغبي[2] ﴿أم لكم سلطانٌ مبين﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بيّن وحجة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بناتٍ له ؟ ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون . . والغرضُ تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون ـ في أقوالهم الباطلة ـ على دليل شرعي ، ولا منطق عقلي . . وينتقل إلى أسطورةٍ أُخرى لفَّقها المشركون ، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنِّ ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجِنَّة ولدت الملائكة فيقول ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنِّ قرابة ونسباً ، حيث قالوا إنه نكح من الجنِّ فولدت له الملائكة ﴿سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾ثم زعموا أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله ﴿ولقد علِمت الجِنَّة إنَّهم لَمُحضرون﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب قال الصاوي : وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم كأنه قيل : هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله ،أعلمُ بحالكم وما يئول إليه

(١) و (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٧٨ .

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾

أمركم[1] ﴿سبحان الله عمَّا يصفون﴾ أي تنـزَّه وتقدَّس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿إلاَّ عبادَ اللهِ المُخْلصين﴾ استثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المخلصين فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿فإنكم وما تعبدون* ما أنتم عليه بفاتنين * إلاَّ من هو صال الجحيم﴾ أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تُضلوا أحداً من عباد الله ، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة ، وقدَّر أنه يدخل النار ويصلاها ، ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿وما منا إلا له مقامٌ معلوم﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها ، فمنا الموكَّل بالأرزاق ، ومنا الموكَّل بالآجال ، ومنَّا من يتنزل بالوحي ، ولكلٍ منزلته من العبادة ، والتقريب ، والتشريف ﴿وإنَّا لنحنُ الصَّافون﴾ أيَ الواقفون في العبادة صفوفاً ﴿وإنا لنحنُ المسبحون﴾ أي المنزهون الله سبحانه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه ، نسبِّح الله في كل وقتٍ وحين قال في التسهيل : وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال إنهم بناتُ الله ، وشركاء الله ، لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله ، والتنزيه له جل وعلا[2] ﴿وإنْ كانوا ليقولون * لو أنَّ عندنا ذِكراً من الأوَّلين * لكُنَّا عباد اللهِ المُخلصين﴾ الضمير لكفار قريش و﴿إنْ﴾ هي المخففة من « إنَّ » الثقيلة أي وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا - قبل أن ينزل عليهم القرآن - يقولون لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لكنا أعظم إيماناً منهم ، وأكثر عبادةً وإخلاصاً للهِ منهم ، فلما جاءهم القرآن كفروا به ولهذا قال ﴿فكفروا به﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فسوف يعلمون﴾ أي فسوف يرون عاقبة كفرهم بآيات الله ، وهو وعيد وتهديد ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم ، والإشارة إلى قوله تعالى ﴿كتبَ اللهُ لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ ﴿وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالحجة والبرهان ، وفي الآخرة بدخول الجنان قال المفسرون : نصرُ الله للمؤمنين محقق ، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك ، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة ، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصيرٍ منهم أو ابتلاءً ومحنة ﴿فتولَّ عنهم حتى

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٤٨ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٧ .

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ
عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

حين﴾ أي أعرض عنهم يا محمد إلى مدة يسيرة ، إلى أن تُؤمر بقتالهم ﴿وأبصرْهم فسوف يُبصرون﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب ، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ ؟ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله ؟ روي أنه لما نزل ﴿فسوف يبصرون﴾ استهزءوا وقالوا متى هذا يكون ؟ فنزلت الآية ثم قال تعالى ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباحُ المُنْذرين﴾ أي لا يستبعدوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم ، شبهه بجيشٍ هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وتولَّ عنهم حتى حين* وأبصرْ فسوف يُبصرون﴾ كرره تأكيداً للتهديد وتسلية للرسول ﷺ ﴿سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون﴾ أي تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العالمين﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام ، والحمد لله في البدء والختام لله ربِّ الخلائق أجمعين. نزَّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه ، فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة ، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه ،وهو تعليم للعباد .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿تدعون . . وتذرون﴾ وبين ﴿البنات . . والبنين﴾ .

٢ ـ تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿ألربك البنات﴾ ؟ ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً﴾ ؟ ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ ؟ ﴿أفلا تذكَّرون﴾ ؟ ﴿أم لكم سلطان مبين﴾ ؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت .

٣ ـ التأكيد بعدة مؤكدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إنهم لهم المنصورون* وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾ فقد أُكدت كل من الجملتين بإن واللام .

٤ ـ الاستعارة التصريحية ﴿إذ أبقَ إلى الفلك المشحون﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإباق العبد من سيِّده .

٥ ـ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ الأصل وتجعلون ، والالتفاتُ للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للخطاب ، وهم بعيدون من رحمة ربِّ الأرباب .

٦ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ مثل للعذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ

بفنائهم بغتة ، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ، حتى اجتاحهم الجيش . قال الزمخشري : وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل[١] .

فَائِدَة : روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال قال رسول الله ﷺ : (من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين﴾)[٢].

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات »

(١) الكشاف ٤/٥٢ . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً، وروي موقوفاً عن علي رضي الله عنه .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة ص مكية ، وهدفها نفس هدف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزَّل على النبي الأمي ، المشتمل على المواعظ البليغة ، والأخبار العجيبة ـ على أن القرآن حقٌّ ، وأن محمداً نبيٌّ مرسل .

* ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها ، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى توحيد الله ﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً ؟ إنَّ هذا لشيء عجاب﴾ .

* وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين ، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، بسبب إفسادهم وإجرامهم .

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام ، تسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام عما يلقاه من كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب ، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه ، فذكرت قصة نبي الله داود ، وولده سليمان ، الذي جمع الله له بين النبوة والملك ، وما نال كلاً منهما من الفتنة والابتلاء ، ثم أعقبتها بذكر فتنة أيوب ، وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل وذا الكفل ، هكذا في عرضٍ سريع لبيان سنة الله ، في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه .

* وأشارت السورة الكريمة إلى دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة ، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثاً ، وأنه لا بدَّ من دار ثانية يجازى فيها المحسن والمسيء .

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام .

التسمية : تسمى السورة الكريمة « سورة ص » وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين ، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

اللغــة : ﴿عِزَّة﴾ تكبر وامتناع عن قبول الحق ، وأصلها الغلبة والقهرُ ومنه قولهم «من عَزَّبزّ» يعني من غلب سلب ﴿شقاق﴾ مخالفة ومباينة ﴿مناص﴾ المناص : الملجأ والغوث والخلاص ﴿عجاب﴾ بالغ الغاية في العجب قال الخليل :العجيب: العجب ، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العجب[1] ﴿اختلاق﴾ كذب وافتراء ﴿فواق﴾ الفَوَاق : الاستراحة والإفاقة قال الجوهري : الفواق والفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ثم تُحلب وقوله تعالى ﴿ما لها من فَوَاق﴾ أي مالها من نظرة وراحة وإفاقة[2] ﴿قِطَّنا﴾ القِطُّ : الحظُّ والنصيب ﴿الأيد﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تسوروا﴾ تسور الحائط علا أعلاه وتسلقه ، والسور : الحائط ﴿تشطط﴾ قال علماء اللغة : الشَّطط : مجاوزة الحد وتخطي الحق ، يقال : شطَّ في الحكم أي جار فيه ولم يعدل ، والأصل فيه : البعدُ من شطَّت الدار بمعنى بعدت .

التفسيــر : ﴿صۤ﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية ، وبينا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القرآن[3] ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ قسمٌ أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع ، وذي الشأن والمكانة ، وجواب القسم محذوف تقديره إن هذا القرآن لمعجز وإن محمداً لصادق قال ابن عباس : ﴿ذي الذكر﴾ أي ذي الشرف[4] ﴿بل الذين كفروا في عِزَّةٍ وشقاق﴾ أي بل الكافرون في حميةٍ وتكبرٍ عن الايمان ، وفي خلافٍ وعداوة للرسول عليه السلام قال البيضاوي : أي ما كفر من كفر بالقرآن لخللٍ وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿في عزةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وشقاقٍ﴾ أي خلاف للهِ ولرسوله ولذلك كفروا به[5] ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية ، لكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم ، قال أبو السعود : والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين[6] ﴿فنادَوْا ولاتَ حينَ مناص﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلباً للنجاة ، وليس الحينُ حينَ فرارٍ ومهرب ونجاة قال ابن جزي : المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك ، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص أي مفر ونجاة من ناص ينوص إذا فرَّ ، ولات بمعنى ليس وأصلها لا النافية زيدت عليها علامة

---

(١) القرطبي ١٥/ ١٥٠ (٢) انظر الصحاح للجوهري . (٣) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ١٩٦ (٥) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦ (٦) أبو السعود ٤/ ٢٨١

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل

التأنيث[١] ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمدﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر ﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذَّاب﴾ أي وقال كفار مكة : إن محمداً ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كذَّاب﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله ، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿الكافرون﴾ مكان الضمير « وقالوا » غضباً عليهم ، وذماً لهم وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم ، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً﴾ ؟ أي أزعم أن الربٌ المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ ﴿إنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب﴾ أي إنَّ هذا الذي يقوله محمد ـ ان الإله واحد ـ شيء بليغٌ في العجب قال ابن كثير : أنكر المشركون ذلك ـ قبَّحهم الله ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم ، فلما دعاهم رسول اللهﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾[٢] قال المفسرون : إن قريشاً اجتمعوا وقالوا لأبي طالب : كُفَّ ابنَ أخيك عنا ، فإنه يعيب ديننا ، ويذم آلهتنا ، ويسفِّه أحلامنا ، فدعاه أبو طالب وكلَّمه في ذلك ، فقالﷺ يا عم : إنما أريد منهم كلمةً واحدة ، يملكون بها العجم ، وتدين لهم بها العرب ، فقال أبو جهل والمشركون : نعم نعطيكها وعشر كلماتٍ معها !! فقال قولوا «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً . .﴾ ؟ فنزلت الآيات[٣] ﴿وانطلقَ الملأُ منهم أن امشُوا واصْبِروا على آلهتكم﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلال فيهم ، وخرجوا من عند الرسولﷺ يقول بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم ، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إن هذا لشيءٌ يُراد﴾ أي هذا أمرٌ مدبَّر ، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم لتكون له العزة والسيادة عليكم ،فاحذروا أن تطيعوه[٤] ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل ، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد ، فكيف يزعم محمد أنَّ الله واحد ؟ قال ابن عباس : يعنون بالملة الآخرة دينَ النصرانية وقال مجاهد وقتادة : يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء ، ثم أنكروا اختصاصه عليه السلام بالوحي من بينهم فقالوا ﴿أأُنزل عليه الذكرُ من بيننا﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا ، مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً ، وأعلى رياسةً ؟

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٧٩ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٧ (٣) انظر تفسير الطبري ٢٣/ ٧٩ والبحر المحيط ٧/ ٣٨٢
(٤) هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر ، وهناك أقوال أخرى تنظر في تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٣

لَمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ

قال الزمخشري : أنكروا أن يختص ﷺ بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم [١] ﴿بل هم في شكٍ من ذكري﴾ إضرابٌ عن مقدر تقديره : إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه فلذلك كفروا ﴿بل لمَّا يذوقوا عذاب﴾ اضراب انتقالي وغرضه التهديد والمعنى سبب شكهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن ، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أم عندهم خزائن رحمةِ ربكَ العزيز الوهاب﴾ ؟ هذا ردٌّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة والمعنى هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا ، ويمنعوها من شاءوا ؟ قال البيضاوي : يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده ، فإنه ﴿العزيز﴾ أي الغالب الذي لا يغلب ﴿الوهاب﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء [٢] ﴿أم لهم ملكُ السموات والأرض وما بينهما﴾ ؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض ؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ أي ان كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء ، وليدبروا شئون الكون ؟ وهو تهكم بهم واستهزاء قال الزمخشري : تهكم بهم غاية التهكم فقال : إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق ، والتصرف في قسمة الرحمة ، وكان عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره ، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش ، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم ، وينزلوا الوحي على من يختارون ، وهو غاية التهكم بهم [٣] ﴿جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ التنكير للتقليل والتحقير ، و ﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جندٌ من الكفار ، المتحزبين على رسل الله ، هم عما قليلٍ يُهزمون ويُولون الأدبار ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث بما يهذون . . ثم أخبر تعالى عما نالَ أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كذبتْ قبلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد﴾ أي كذب قبل كفارِ قريش أممٌ كثيرون منهم قوم نوح ، وقوم هود وهم قبيلة « عاد » وفرعون الجبار ذو الملك الثابت بالأوتاد أو ذو الجموع الكثيرة ، قال بعض المفسرين : سمي بذي الأوتاد لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتادٍ في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت وقيل : لأنه صاحب الإهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد [٤] ﴿وثمودُ وقومُ لوطٍ وأصحاب الأيكة﴾ أي وكذبت ثمود وهم قوم صالح وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف وهم قوم

(١) تفسير الكشاف ٤/٥٦. (٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦
(٣) تفسير الكشاف ٤/٥٧ . (٤) نقل عن الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية ، وقال الزمخشري : إن ذلك استعارةٌ في ثبات الملك كقول الأسود : في ظل مُلْكٍ ثابت الأوتاد .

﴿ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ
يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ
يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾

شعيب ﴿أولئك الأحزاب﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله ، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إن كلٌّ إلاّ كذَّب الرسل﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه ﴿فحقَّ عقاب﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي ، وحذفت الياء مراعاة لرءوس الآيات ﴿وما ينظرُ هؤلاء إلا صيحةً واحدة﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿ما لها من فواق﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار ، قال ابن عباس : أي ما لها من رجوع[1] قال المفسرون : أي أن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد ، الذي لا يتقدم ولا يتأخر قال الزمخشري : يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد[2] ﴿وقالوا ربَّنا عجِّلْ لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية : عجِّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا ، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد قال المفسرون : وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ ﴿اصبرْ على ما يقولون﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم قال الصاوي : وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار[3] ﴿واذكرْ عبدنا داودَ ذا الأيد﴾ أي وتذكرْ عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر ، ذا القوة في الدين ، والقوة في البدن ، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يقوم نصف الليل ﴿إنه أواب﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله ، والأوَّابُ : الرجَّاع إلى الله قال أبو حيان : لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين ، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم ، وذكر قصصاً للأنبياء «داود ، وسليمان ، وأيوب» وغيرهم ، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم ، وصارت عاقبتُهم أحسن عاقبة ، فكذلك أنت تصبر ويئول أمرك إلى أحسن مآل[4] ﴿إنا سخرنا الجبالَ معه يُسبحنَ بالعشيِّ والإشراق﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح ، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزةً لداود عليه السلام كما قال تعالى ﴿يا جبالُ أوِّبي معه والطير﴾ ﴿والطيرَ محشورةً كلٌّ له أوَّاب﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه ، كلٌّ من الجبال والطير رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس قال ابن كثير : كانت الطير تسبِّح بتسبيحه وترجِّع بترجيعه ، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبِّح معه ، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجِّع معه وتسبِّح تبعاً له ، قال

(١) الطبري ٢٣/٨٤ . (٢) الكشاف ٤/٥٩ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٥٣ . (٤) البحر المحيط ٧/٣٩٠ .

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٣٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٣١﴾
إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى

قتادة : ﴿أوَّاب﴾ أي مطيع [1] ﴿وشددنا ملكه﴾ أي قوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي أعطيناه النبوَّة والفهم والإصابة في الأمور ﴿وفَصْلَ الخِطاب﴾ أي الكلام البيِّن الذي يفهمه من يُخاطب به [2] قال مجاهد : يعني إصابة القضاء وفهمه وقال القرطبي : البيان الفاصل بين الحق والباطل [3] قال المفسرون : كان مُلك داود قوياً عزيزاً ، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً ، ويقطع ويجزم برأيٍ لا تردد فيه مع الحكمة والقوة ، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب﴾ هذا الاستفهام للتعجيب وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه كما تقول لجليسك : هل تعلم ما وقع اليوم ؟ تريد تشويقه لسماع كلامك والمعنى هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوَّروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة ؟ ﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم قال المفسرون : وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ، ودخلوا من غير الباب ، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدَّى بعضنا على بعض ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل ، ولا تجر ولا تظلم في الحكم ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة وليَ نعجةٌ واحدة﴾ هذه بداية قصة الخصمين [4] أي قال أحدهما : إن صاحبي هذا يملك تسعة وتسعين

(١) مختصر ابن كثير ٣ . (٢) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى ﴿إنه لقول فصل﴾ واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب . (٣) تفسير القرطبي ١٥/١٦٢ .

(٤) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفاسيرهم اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص ، مما لم يصح سنده ولا يجوز اعتماده ، لأنه من القصص الاسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في «عصمة الأنبياء» . من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها «أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها ، وكانت زوجة أحد قواده ويسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها ، فأرسله في إحدى المعارك وحمَّله الراية وأمره بالتقدم فانتصر ، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتى قتل فتزوجها . .» الخ ما هنالك من الكذب والبهتان قال ابن كثير : وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات ، ومنها ما هو مكذوب لا محالة ، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً ، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وقال البيضاوي : وما قيل إنه أرسل «أوريا» مراراً إلى الحرب ، وأمره أن يتقدم حتى قتل فتزوجها داود ، فزورٌ وافتراء ، ولذلك قال علي رضي الله عنه «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصاص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء . والصحيح في موضوع هذه القصة ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلمائه الأعلام ، وبيان هذه القصة أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك ، وللقضاء بين الناس ، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحاً لله في المحراب ، وكان اذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحدٌ حتى يخرج هو إلى الناس، وفي =

فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي

نعجة ـ وهي أنثى الضأن ـ وأملك أنا نعجة واحدة قال المفسرون : وقد يكنى بها عن المرأة فيكون الغرض أن عنده تسعاً وتسعين امرأةً وعندي امرأة واحدة ﴿فقال أكفلنيها﴾ أي ملكنيها واجعلها تحت كفالتي ﴿وعزَّني في الخطاب﴾ أي غلبني في الخصومة ، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ أي قال له داود لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ﴿وإنَّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضُهم على بعض﴾ أي وإن الكثيرين من الشركاء ليتعدى بعضُهم على بعض ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم﴾ أي إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات فإنهم لا يبغون وهم قليل ﴿وظنَّ داود أنما فتناه﴾ أي علم وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة ﴿فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب﴾ أي طلب المغفرة من الله وخرَّ ساجداً لله تعالى ، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه قال أبو حيان : وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ، ضربنا عن ذكرها صفحاً ، والذي يدل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم ، وأنه فزع منهم ظناً منه أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن ، وخرَّ ساجداً لله عز وجل ، ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، إذ لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون ، فما حكى الله في كتابه يُمرُّ على ما أراده الله ، وما حكى القُصَّاص مما فيه غضٌ من منصب النبوة طرحناه[1] ثم قال تعالى ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أي فسامحناه وعفونا عنه ذلك الظن السيء بالرجلين قال ابن كثير : أي غفرنا له ما كان منه مما يقال فيه : « حسناتُ الأبرار سيئات المقربين » ﴿وإنَّ له عندنا لزلفى﴾ وإنَّ له لقربةً وكرامة

= ذات يوم فوجىء بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه ، ففزع منهما وأضمر في نفسه أن يبطش بهما ، فبادرا يطمئنانه أنه خصمان اختلفا في أمر بينهما ، وبدأ أحدهما فعرض خصومته ـ كما قصها القرآن الكريم ـ في آياته البينات . والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل ، ومن ثمَّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة ، ولكنه مضى يحكم بقوله : ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . . .﴾ إلى آخر الآيات فعاتبه الله على ذلك ونبَّهه إلى ضرورة تثبت القاضي من حكمه وسماعه للخصم الآخر . . . أمَّا ما قاله البعض اعتماداً على بعض الروايات الإسرائيلية مما ذكرناه وحذرنا منه ، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق ، فما بالك بالأنبياء بل بخواص الأنبياء « فليتدبر هذا من له عقل سليم ودين قوى » .

(١) تفسير البحر المحيط ٧/٣٩٣ بشيء من الاختصار ، وهذا هو الحقُّ الأبلج الذي ندين الله عز وجل به والذي يجب أن يعتقده المسلم في الأنبياء والمرسلين ، وانظر كتابنا النبوة والأنبياء ففيه بيان أوسع لهذه القصة وانظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي فقد ردَّ تلك الفرية من عشرة وجوه فأجاد وأفاد . . التفسير الكبير ٢٦/ ١٨٩ .

ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

بعد المغفرة ﴿وحسن مآب﴾ أي وحسن مرجع في الآخرة ﴿يا داودُ إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض﴾ أي استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿فاحكم بين الناس بالحقِّ﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك ﴿ولا تتبعْ الهوى فيضلَّك عن سبيل الله﴾ أي لا تتَّبع هوى النفس في الحكومات وغيرها فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم ، وشرعه المستقيم ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿بما نَسُوا يوم الحساب﴾ أي بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله ، وعدمِ إيمانهم بيوم الحساب ، لأنهم لو آمنوا به لأعدوا الزاد ليوم المعاد ، قال أبو حيان : وجعلُه تعالى داود خليفةً في الأرض يدلُّ على مكانته عليه السلام واصطفائه له ، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز المرسل ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز .

٢ ـ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وقال الكافرون﴾ بدل وقالوا لتسجيل جريمة الكفر عليهم .

٣ ـ صيغة المبالغة في كل من ﴿كذَّاب ، العزيز ، الوهاب ، أواب﴾ .

٤ ـ التنوين للتقليل والتحقير وزيادة ﴿ما﴾ لتأكيد القلة ﴿جندٌ ما هنالك﴾ .

٥ ـ تأكيد الجملة الخبرية بإن واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إن هذا لشيءٌ عُجاب﴾ .

٦ ـ الاستعارة البليغة ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ شبه المُلْك بخيمةٍ عظيمة شُدَّت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح ففيه استعارة مكنيَّة وذكرُ الأوتاد تخييل .

٧ ـ الطباق ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ لأن المراد المساء والصباح .

٨ ـ أسلوب التشويق ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق .

٩ ـ أسلوب الإطناب ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ الخ .

١٠ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿إن هذا لشيء عُجاب . . فليرتقوا في الأسباب . . جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله .

لطيفــة : روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت ! فقال يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قال يا أمير المؤمنين : أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . .﴾ الآية ، فكانت موعظة بليغة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما . . إلى . . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ . من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٤)

المناسبة : لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر ، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور ، ثم بيَّن الحكمة من نزول القرآن ، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تتمياً وتكميلاً للهدف السامي من ذكر قصص القرآن .

اللغة : ﴿الألباب﴾ العقول واحدها لبٌّ ، ولبُّ الشيء صفوته وخلاصته ولذلك سُمي العقل لُبّاً ﴿الصافنات﴾ الخيول الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة جمع صافن قال الفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها قال الشاعر :

تركنا الخيل عاكفةً عليه مُقلدة أعنَّتها صفُونا[1]

﴿الجياد﴾ السِّراع السَّوابق في العدو قال المبرد : الجياد جمع جواد وهو الشديد الجري كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل[2] ﴿توارت﴾ اختفت ﴿رخاء﴾ لينة أو منقادة حيث أراد ﴿الأصفاد﴾ سلاسل الحديد والأغلال واحدها صفد وفي الحديث « صُفدت الشياطين » أي ربطت بالسلاسل قال الشاعر :

فآبوا بالنِّهاب وبالسبايا وأُبنا بالمُلوك مصفَّدينا

﴿ضغثاً﴾ الضغث : حزمة من الحشيش أو غيره مختلطة الرطب باليابس ، وأصله : الشيء المختلط ومنه « أضغاث أحلام » للرؤيا المختلطة .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

التفسير : ﴿وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً﴾ أي ما خلقنا هذا الكون البديع بما فيه من المخلوقات العجيبة عبثاً وسُدى ﴿ذلك ظنُّ الذين كفروا﴾ أي خلق ما ذكر لا لحكمة هو ظنُّ الكفار الفجار الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿فويلٌ للذين كفروا من النار﴾ أي فويلٌ للكفار من عذاب

(١) تفسير القرطبي ١٥/١٩٣ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٦/٢٠٤ .

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ﴾

النار ، ثم وبخهم تعالى على هذا الظنِّ السيء فقال ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ ؟ أي هل نجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين ؟ ﴿أمْ نجعلُ المتقين كالفجَّار﴾ ؟ أي أم نجعل الأخيار الأبرار كالأشرار الفجار ؟ والغرض : أنه لا يتساوى في حكمته تعالى المحسن مع المسيء ، ولا البرُّ مع الفاجر ، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء ، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد قال ابن كثير : بيَّن تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من جزاء يُثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها الفاجر ، وقد دلت العقول السليمة على أنه لا بدَّ من جزاء ومعاد ، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد مالُه وولدُه ونعيمُه ويموت دون عقاب ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بدَّ في حكمة الحكيم العليم إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعيَّن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة[1] . . ثم بيَّن تعالى الغاية من نزول القرآن وهي العمل والتفكر فقال ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارك﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل ، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية ﴿ليدَّبَّروا آياته﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة ، والحكم الجليلة ﴿وليتذكَّر أُولوا الألباب﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة قال الحسن البصري : واللهِ ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إنَّ أحدهم ليقول : واللهِ لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً ، وقد أسقطه واللهِ كلَّه ، ما يُرى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُق ولا عمل[2] . . اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي رزقنا عبدنا داود بالولد الصالح المسمَّى سليمان وأعطيناه النبوة قال المفسرون : المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة ، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نعمَ العبدُ إنه أوَّاب﴾ أي نعم العبدُ سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إذْ عُرض عليه بالعشيِّ الصافنات الجياد﴾ أي اذكر حين عُرض على سليمان عشية يوم من الأيام - أي بعد العصر - الخيل الواقفة على طرف الحافر ، السريعة الجري قال الرازي : وُصفت تلك الخيل بوصفين : الأول : الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس ، والثاني : الجياد وهي الشديدة الجري ، والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالي الوقوف والحركة ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها[3] ﴿فقال إني أحببتُ حبَّ الخير عن ذكر ربي﴾ أي آثرت حبَّ الخيل حتى شغلتني عن ذكر الله قال المفسرون : عُرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه ، فأُجريت بين يديه عشياً فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٢ . (٢) تفسير الكشاف ٤/ ٧٠ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٠٤ .

رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾

ذكرٍ له خاص حتى غابت الشمس ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿ردُّوها عليَّ﴾ أي قال سليمان ردُّوا هذه الخيل عليَّ ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقرباً إلى الله ، لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله قال الحسن : لما رُدَّت عليه قال : لا والله لا تشغليني عن طاعة ربي ثم أمر بها فعقرت وكذلك قال السدي[1] ، وأما قول من قال : إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف ، لأنه لا يتصور من نبيٍ أن يترك صلاة العصر من أجل اشتغاله بالدنيا ، والنصُّ صريح ﴿عن ذكر ربي﴾ ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به ، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة ، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال : (قال سليمان : لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة ، كلٌ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ـ ولم يقل : إن شاء الله ـ فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده : لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون)[2] قال ابن كثير : « وقد أورد بعضُ المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعةٍ من السلف ، وأكثرها أوكلُّها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة »[3] واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده ، حيث إن سليمان ابتلي بمرضٍ شديد نحل منه وضعف ، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسي ، قال والعرب تقول في الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ، ثم أناب أي رجع إلى حالة الصحة[4] ﴿قال ربِّ اغفر لي وهبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكاً واسعاً لا يكون لأحدٍ غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فسخرنا له الريح﴾ أي فذللنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته ﴿تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب﴾ أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث

(١) روي عن ابن عباس أنه قال : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها وتكرمة ، وهذا القول اختاره ابن جرير ، والأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة ، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل . (٢) الحديث أخرجه البخاري ولكنه لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيراً ويحتمل غيره .

(٣) أشار ابن كثير إلى ما ذكره بعض المغرمين بالروايات الضعيفة ، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة ، حول فتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم هذه الإشارة الخاطفة ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء ، فأعطى الجرادة ـ زوجته ـ خاتمه ، وكانت أحب نسائه اليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فظنته سليمان فأعطته إياه . فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين . . الخ وكل هذه الروايات خرافات وأباطيل ردها المحققون من العلماء كابن كثير ، والفخر الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم . (٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد ، وكتابنا « النبوة والأنبياء » .

وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ

قصد وأراد ﴿والشياطينَ كلَّ بنّاءٍ وغوّاص﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره ، منهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ، ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿وآخرين مقرَّنين في الأصفاد﴾ أي وآخرين من الشياطين ـ وهم المردة ـ موثوقون في الأغلال ، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسكْ بغير حساب﴾ أي وقلنا له : هذا عطاؤنا الواسع لك ، فأعطِ من شئت وامنعْ من شئت ، لا حساب عليك في ذلك ، لأنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة ﴿وإنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي وإنّ له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا ، وحسن مرجع في الآخرة ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة ، والإضافة للتشريف أي اذكر يا محمد عبدنا الصالح أيوب عليه السلام ، الذي ابتلي بأنواع البلاء فصبر . ﴿إذْ نادى ربَّه أني مسني الشيطان بنُصْبٍ وعذاب﴾ أي حين نادى ربه متضرعاً إليه قائلاً إني مسني الشيطان بتعبٍ ومشقة ، وألمٍ شديد في بدني قال المفسرون : وإنما نسبَ ذلك إلى الشيطان تأدباً مع الله تعالى ، وإنْ كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى ، وكان أيوب قد أُصيب في ماله وأهله وبدنه ، وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة ، وقد تقدمت قصته[١] ﴿أركضْ برجلك﴾ أي وقلنا له اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت له عين ماءٍ صافية ﴿هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب﴾ أي وقلنا له هذا ماءٌ تغتسل به ، وشراب تشرب منه ، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده ، وشرب منها فذهب كل مرضٍ كان داخل جسده قال أبو حيان : ﴿هذا مغتسل﴾ أي ما يُغتسل به ﴿وشراب﴾ أي ما يشرب منه ، فباغتسالك يبرأ ظاهرك ، وبشربك يبرأ باطنك ، والجمهور على أنه نبعت له عينان ، شرب من إحداهما واغتسل من الأخرى فشفي[٢] ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾ أي أحيا الله من مات من أولاده ورزقه مثلهم قال الرازي : الأقرب أن الله تعالى متعه بصحته وبماله وقوَّاه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك وعن الحسن أنه أحياهم بعد أن هلكوا[٣] وقال أبو حيان : الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع عليه من شتت منهم[٤] ﴿رحمةً منا﴾ أي رحمةً منّا به لصبره وإخلاصه ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي وعبرة لذوي العقول المستنيرة قال ابن كثير : أي وذكرى لذوي العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج[٥] ﴿وخذْ بيدك

(١) انظر قصته في سورة الأنبياء من هذا التفسير . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٠١ .
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢١٥ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٤٠١ (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٥ .

ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾
مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا

ضِغْثاً فاضربْ به ولا تحنثْ﴾ أي وقلنا له خذْ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة فاضرب بها زوجتك لتبرَّ بيمينك ولا تحنث قال المفسرون : كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برىء من مرضه ، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه ، فلما اشتد به البلاء وطالت به المدة وسوس إليها الشيطان : إلى متى تصبرين ؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر فقالت له : إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط ، فأمره الله أن يأخذ حزمةً من قضبانٍ خفيفة فيها مئة عود ويضربها بها ضربة واحدةً ويبرَّ في يمينه ، ورحمةً من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته ، وصبرت على بلائه،وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولهذا قال تعالى ﴿إنا وجدناه صابراً﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم ، الذين جمعوا بين القوة في العبادة ، والبصائر في الدين قال الطبري : أي أهل القوة في عبادة الله ، وأهل العقول المبصرة[1] ﴿إنّا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار﴾ أي خصصناهم بخصلةٍ خالصة عظيمة الشأن ، هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم للدار الباقية قال مجاهد : جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها[2] ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتبون على سائر الناس لأنهم أخيار أبرار ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضاً وكلٌّ من خيرة الله فاقتد بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هذا ذكرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا ، وشرفٌ يذكرون به أبداً ﴿وإنَّ للمتقين لحسن مآب﴾ أي وإن لكل متقٍ لله مطيع لرسله لحسن مرجع ومنقلب ، ثم فسره بقوله ﴿جنات عدنٍ مفتحةً لهم الأبواب﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم قال الرازي : إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها ، وحيوهم بالسلام ، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزِّ حال ، وأجمل هيئة[3] ﴿متكئين فيها﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة ﴿يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب﴾ أي وهم متكئون على الأسرَّة

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٦ . (٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢١ .

مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

يطلبون أنواع الفواكه ، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا قال ابن كثير : أي مهما طلبوا وجدوا ، ومن أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدام[١] قال الصاوي : والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي لأنه لا جوع في الجنة[٢] ﴿وعندهم قاصراتُ الطرف أتراب﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب أي في سنٍّ واحدة ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ﴿إنَّ هذا لرزقُنا ما له من نفَاد﴾ أي هذا النعيم عطاؤ نا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبداً قال في الظلال : يبدأ هذا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء ، وفي السِّمات والهيئات : منظر المتقين لهم ﴿حسن مآب﴾ ومنظر الطاغين لهم ﴿شر مآب﴾ فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب ، ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب ، ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب ، وهنَّ مع شبابهن ﴿قاصرات الطرف﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن ، وكلهن شواب أتراب ، وهو متاع دائم ، ورزق من عند الله ما له من نفاد[٣] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين . . إلى . . ولتعلمنَّ نبأه بعد حين﴾ . من آية (٥٥) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

المناسَبَة : لمّا ذكر تعالى مآل السعداء المتقين ، ثنَّى بذكر حال الأشقياء المجرمين ، ثم ذكر بعض الأدلة على صدق رسالة محمد ﷺ وختم السورة الكريمة بذكر قصة آدم وإبليس وامتناعه عن السجود لآدم ، تحذيراً للبشر من عدوهم الأكبر ومن وساوسه وإغوائه .

اللغَة : ﴿غساق﴾ الغسَّاق : ما يخرج من لحوم الكفرة من الصديد والقيح والنتن ﴿زاغت﴾ مالت ﴿سخْرِياً﴾ بكسر السين وهو الهزء والسخرية ﴿مقتحم﴾ الاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها ومنه اقتحام المخاطر ﴿سويته﴾ أتممت خلقه على أكمل الوجوه ﴿العالين﴾ المتكبرين ، وعلا في الأرض : تكبر وتجبر ﴿رجيم﴾ مرجوم بالكواكب والشهب .

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾

التفسِير : ﴿هذا وإنَّ للطاغين لشرَّ مآب﴾ ﴿هذا﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره الأمرُ هذا وهي بمنزلة أما بعد ، ثم قال ﴿وإنَّ للطاغين لشر مآب﴾ أي وإنَّ للكافرين الذين كذبوا الرسل ، لشرَّ منقلب يصيرون إليه في الآخرة ، ثم فسَّر هذا المصير بقوله ﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ أي جهنم يذوقونها ويصلون سعيرها ، وبئست جهنم فراشاً ومهاداً لهم قال ابن جزي : لما تمَّ ذكر أهل الجنة ختمه

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٧ . (٢) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦١ . (٣) في ظلال القرآن .

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾

بقوله ﴿هـذا﴾ ثم ابتدأ بذكر وصف أهل النار ، وعنى بالطاغين الكفار[1] ﴿هـذا فليذوقوه حميمٌ وغساق﴾ أي هذا هو العذاب الأليم فليذوقوه وهو الحميم أي الماء الحار المحرق ، والغسَّاق وهو ما يسيل من صديد أهل النار قال الطبري : في الآية تقديم وتأخير أي هذا حميم وغساق فليذوقوه ، والحميمُ الذي أُغلي حتى انتهى حره ، والغسَّاق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم[2] ﴿وآخرُ من شكله أزواج﴾ أي وعذابٌ آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزمهرير ، والسموم ، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف . . ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال ﴿هـذا فوجٌ مقتحم معكم لا مرحباً بهم﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم : هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال ، لا أهلاً ولا مرحباً بهم ﴿إنهم صالـوا النـار﴾ أي إنهم ذائقو النار ، وداخلوها كما دخلتموها أنتم قال الرازي : والاقتحامُ ركوبُ الشدة والدخولُ فيها ، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم ، والعرب تقول لمن يدعون له : مرحباً أي أتيتَ رحباً في البلاد لا ضيِّقاً ، ثم يدخلون عليها كلمة « لا » في دعاء السوء[3] ﴿قالوا بـل أنتم لا مرحباً بكـم﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحباً قال المفسرون : عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم ﴿لا مرحباً بكم﴾ أي لا تلقون هنا رحباً ولا خيراً ـ وهذه تحية أهل النار ـ كما قال تعالى ﴿كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها﴾ فعند ذلك يقول لهم الداخلون ﴿بـل أنتم لا مرحباً بكـم﴾ وهذا على حد قول القائل « تحيةُ بينهِم ضربٌ وجيع » فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم باللعنات والشتائم بدل التحايا والسلام ، ثم يعلِّل الأتباع ذلك بقولهم ﴿أنتم قدمتمـوه لنـا فبئس القـرار﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب وكنتم السبب في ضلالنا ، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قالـوا ربنـا مـن قـدَّم لنـا هذا فـزدْه عذاباً ضعفاً فـي النـار﴾ هذا أيضاً من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهـم عذاباً ضعفاً فـي النـار﴾ والضعفُ زيادة المثل[4] قال البيضاوي : وقال الأتباع أيضاً ﴿ربنا مـن قدَّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفـاً﴾ أي مضاعفاً وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين[5] ﴿وقالـوا ما لنـا لا نـرى رجالاً كنـا نعدُّهـم من الأشـرار﴾ ؟ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال : ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار ؟ يعنون بهم المؤمنين قال ابـن عبـاس : يريدون .

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٧ . (٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١١٣ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٢٢ .
(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٨ . (٥) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥١ .

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾

أصحاب محمدﷺ يقول أبو جهل : أين بلال ، أين صهيب ، أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ! واعجباً لأبي جهل ! مسكين ، أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه وكفر هو[١] قال ابن كثير : هذا إخبار عن الكفار في النار ، أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون ، يقول أبو جهل : ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً ؟ وهذا ضربُ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم ، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم[٢] ، ثم قالوا ﴿أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار﴾ ؟ أي يؤنبون أنفسهم قائلين : أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية ؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ قال البيضاوي : إنكار على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار من المؤمنين ، كأنهم قالوا : ليسوا ههنا في النار ؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم[٣] ؟ قال تعالى ﴿إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم ، لهو الحقُّ الذي لا بدَّ وأن يتكلموا به ، فنحن نخبرك عن تخاصمهم في جهنم ، وعن أقوالهم وهم فيها قال الرازي : وإنما سمَّى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول الأتباع ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة[٤] ﴿قل إنما أنا منذر﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسولﷺ وفي إثبات الوحدانية ، والمعاد ، والجزاء أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أنا رسولٌ من رب العالمين ، أُنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا ، ولستُ بساحرٍ ولا شاعر ولا كاهن ﴿وما من إلهٍ إلا اللهُ الواحدُ القهار﴾ أي وليس لكم ربٌ ولا معبود إلا الواحد الأحد ، الغالب على خلقه ، القاهر لكل شيء ﴿ربُّ السمٰواتِ والأرض وما بينهما﴾ أي خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب ، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿العزيز الغفار﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب ، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد قال الرازي : لما ذكر أنه ﴿قهار﴾ وهذا مشعر بالترهيب والتخويف ، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة ، والفضل والكرم وهي : « الرب ، العزيز ، الغفار » فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان ، وكونه عزيزاً مشعرٌ بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء ، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب وأنه يرجى فضله وثوابه ، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة ، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه ، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين ، ويوصله إلى درجات الأبرار[٥] ﴿قل هو نبأٌ عظيم * أنتم عنه معرضون﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٧ . (٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥١ .
(٤) التفسير ٢٦/ ٢٢٣ . (٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢٤ .

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾

الشأن ، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره ﴿ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليَّ ؟ قال ابن جزي : والقصدُ الاحتجاج على نبوة محمدﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك ، والإشارة الى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن[١] ﴿إنْ يُوحى إليَّ إلا أنما أنا نذير مبين﴾ أي ما يوحى إليَّ إلا لأني رسولٌ مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله ، ومعنى النذير المنذر المخوِّف من عذاب الله ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فإذا سوَّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ أي فإذا أتممتُ خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكراماً له وإعظاماً قال القرطبي : وهذا سجود تحية لا سجود عبادة[٢] ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعاً له وتعظيماً لأمر الله بالسجود له ﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين قال ابن كثير : امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً كان من الجن[٣] ، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خيرٌ من آدم ، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ﴿قال يا إبليسُ ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ﴾ ؟ أي قال له ربه : ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أب وأم ؟ قال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم وإن كان خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿استكبرتَ أم كنت من العالين﴾ ؟ أي استكبرتَ الآن عن السجود أم كنت قديماً من المتكبرين على ربك ؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قال أنا خيرٌ منه﴾ أي قال اللعينُ أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ أي لأنني مخلوق من

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٧ . (٣) هذا هو الرأي الصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة وقد تقدم قول الحسن البصري « لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين » وهذا هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح وتدل عليه النصوص الكريمة كقوله تعالى ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وانظر الأدلة في كتابنا النبوة والأنبياء ١/ ١٢٨ .

وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ
إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ
بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

النار ، وآدم مخلوق من الطين ، والنار خيرٌ من الطين ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خيرٍ وكرامة ﴿وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ أي وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿قال ربِّ فانظرني إلى يوم يُبعثون﴾ أي أخرني وأمهلني إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور قال أبو السعود : أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موتَ بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه[1] ﴿قال فإنك من المنظرين* إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي إنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المُخلَصين﴾ أي قال اللعين : أُقسم بعزتك لأُضلنَّ بني آدم أجمعين ، إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ* لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ أي قال تعالى أقسم بالحقِّ ولا أقول إلا الحقَّ لأملأن جهنم منك ومن أتباعك قال السُّدي : هو قسم أقسم الله به[2] ، وجملة « والحقَّ أقول » اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين﴾ أي قل لهم يا محمد : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى انتحل النبوة وأتقوَّل القرآن ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ﴿ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين﴾ أي ولتعلمنَّ خبره وصدقه عن قريب ، وهذا وعيدٌ وتهديد قال الحسن البصري : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المقابلة بين المؤمنين والمفسدين ، وبين المتقين والفجار ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار﴾ وهذه من ألطف أنواع البديع .

٢ ـ الكناية ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ كنَّى عن العقر والذبح بالمسح وهي كناية بليغة ،

(١) تفسير أبي السعود ٤/٢٩٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٩

٣ ـ الطباق بين ﴿فامنن أو أمسك﴾ لأنها بمعنى أعط من شئت ، وامنع من شئت .

٤ ـ مراعاة الأدب ﴿أني مسني الشيطان﴾ أسند الضرر إلى الشيطان أدباً ، والخير والشر بيد الله تعالى .

٥ ـ الاستعارة التصريحية ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ استعار الأيدي للقوة في العبادة والأبصار للبصيرة في الدين .

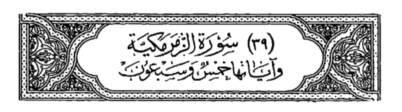
٦ ـ المقابلة الرائعة ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب* جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب﴾ ثم قابل ذلك بقوله ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب* جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ ويا له من تصوير رائع !

٧ ـ التأكيد بمؤكدين ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ فقد أكده أولاً بلفظ كل ثم بلفظ أجمعون .

٨ ـ مراعاة الفواصل وهي من خصائص القرآن ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار* اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار* إنَّ ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار﴾ فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب ، يسري في النفس سريان الروح في الجسد ، وأقسم بالله أنني أشعر بهزة في نفسي كلما قرأتُ القرآن ، لما له من وقع عذب على السمع ، وأحياناً أجدني أتمايل طرباً بدون شعور ، أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام ، وما ذلك إلا لروعة البيان في هذا القرآن ، وصدق رسول الله حين قال (إن من البيان لسحراً) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ ولله الحمد والمنة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الزمر مكية ، وقد تحدثت عن « عقيدة التوحيد » بالإسهاب ، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة لأنها أصل الايمان ، وأساس العقيدة السليمة ، وأصل كل عمل صالح .

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن « المعجزة الكبرى » الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله ، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين ، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء ، وردَّت على ذلك بالدليل القاطع .

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، في إبداعه لخلق السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسييره للشموس والأقمار ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته .

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء ، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء ، حيث يذوقون ألوان العذاب ، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم .

* وذكرت السورة مثلاً يوضّح الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً ، ومن يعبد آلهةً متعددة لا تسمع ولا تستجيب ، وهو مثلٌ للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون ، والعبد الذي يملكه سيد واحد ، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم ، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشُّوا وبشُّوا .

* ثم جاءت الآيات طريَّةً نديَّة تدعو العباد إلى الإنابة لربهم ، والرجوع إليه ، قبل أن يداهمهم الموت بغتة ، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وحينئذٍ يتوبون ويندمون في وقتٍ لا ينفع فيه توبة ولا ندم .

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق ، ثم نفخة البعث والنشور ، وما يعقبها من أهوال الآخرة وشدائدها ، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر ، حيث يساق المتقون الأبرار إلى الجنة زمراً ، ويساق

المجرمون الأشرار إلى جهنم زمراً ، في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار ، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام .

التسمية :سميت « سورة الزمر » لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، أولئك مع الإجلال والإكرام ، وهؤلاء مع الهوان والصغار .

* * *

قال الله تعالى : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . . إلى . . وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠)

اللغة : ﴿زلفى﴾ قربى ومنه ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قرّبت لهم ﴿يكوِّر﴾ التكوير : اللفُّ والليُّ يقال : كوَّر العمامة أي لفَّها ﴿خوَّله﴾ أعطاه وملَّكه ﴿قانت﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أنداداً﴾ أوثاناً وأصناماً ﴿ظُلل﴾ جمع ظُلَّة وهي ما يُظل الإنسان من سقف ونحوه ﴿الطاغوت﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿أنابوا﴾رجعوا ﴿غرف﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ، والغرفة : المنزلة والمكانة السامية ومنه ﴿أولئك يُجزون الغُرفة بما صبروا﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾
أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

التفسير : ﴿تنزيلُ الكتابِ من اللّهِ العزيزِ الحكيم﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جل وعلا ﴿العزيز﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿الحكيم﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمةٍ وتقدير وتدبير ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمناً الحق الذي لا مرية فيه ، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فاعبد اللهَ مخلصاً له الدين﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك ، ولا تقصد بعملك ونيتك غير ربك ﴿ألا للّهِ الدين الخالصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس : إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم لأنه المتفرد بصفات الألوهية ، المطَّلع على السرائر والضمائر ، ومعنى « الخالص » الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللهِ زُلفى﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي : كان المشركون إذا قيل لهم : من خلقكم ؟ ومن خلق السمواتِ والأرض ؟ ومن ربكم وربّ آبائكم الأولين ؟

فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

فيقولون : الله ، فيقال لهم : فما معنى عبادتكم الأصنام ؟ فيقولون : لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده[1] ﴿إنَّ اللـه يحكـم بينهـم فيما هـم فيـه يختلفـون﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، فيدخل المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ﴿إن اللـه لا يهـدي مـن هـو كـاذب كفَّـار﴾ أي لا يوفق للهدى ، ولا يرشد للدين الحق من كان كاذباً على ربه ، مبالغاً في كفره ، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لـو أراد اللـهُ أن يتخـذَ ولـداً﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد على سبيل الفرض والتقدير ﴿لاصطفـى ممَّا يخلـق مـا يشـاء﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني - إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف - ولكنه لم يشأ ذلك لقوله ﴿ومـا ينبغـي للرحمـن أن يتخـذ ولـداً﴾ وقوله ﴿مما يخلـق﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واخترعها ﴿سبحانـه هـو اللـهُ الواحـد القهـار﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد ، لأنه هو الإِله الواحد الأحد ، المنزَّه عن النظير والمثيل ، القاهر لعباده بعظمته وجلاله قال في التسهيل : نـزَّه تعالى نفسه من اتخاذ الولد ، ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد ، لأنه لو كان له ولدٌ لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد ، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد ، لأن كل شيء مقهـور تحت قهره تعالى ، فكيف يكون شريكاً له[2] ؟ ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته وعظمته ، فقـال : ﴿خلـق السمـٰوات والأرضَ بالحـقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات ، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكـوِّرالليـل على النهـار ويُـكوِّر النهـار على الليــل﴾ أي يغشي الليل على النهار ، ويغشي النهار على الليل ، وكأنه يلفُّ عليه لـفَّ اللباس على اللابس قال القرطبي : وتـكويرُ الليل على النهـار تغشيتُه إياه حتى يُذهب ضوءه ، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة وهو معنى قوله تعالى : يُغشي الليلَ النهار يطلبه حثيثاً[3] ﴿وسخَّـر الشمـس والقمـر﴾ أي ذلَّلهمـا لمصالح العباد ﴿كـلٌ يجـري لأجـلٍ مسـمًّى﴾ أي كـلٌ منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى ، ثم ينقضي يوم القيامة حين تكور الشمس وتنكدر النجوم ﴿ألا هــو العزيــز الغفـار﴾ أي هو جل وعلا كامل القدرة لا يغلبه شيء ، عظيـم الرحمة والمغفرة والإِحسان قال الصـاوي : صُدِّرت الجملة بحرف التنبيه « ألا » للدلالة على كمال الاعتناء بمضمونها كأنه قال : تنبهوا يا عبادي فإني أنا الغالب على أمري ، الستَّار لذنـوب خلقـي

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٦٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/١٩١ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/٢٣٥ .

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

فأخلصوا عبادتكم ولا تشركوا بي أحداً[1] . ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ أي خلقكم أيها الناس من نفسٍ واحدة هي آدم ، وهذا من جملة أدلة وحدانيته ، وانفراده بالعزة والقهر ، وجميع صفات الألوهية ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ أي ثم خلق من آدم حواء ليحصل التجانس والتناسل **قال الطبري** : المعنى : ﴿خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ يعني آدم ﴿ثم خلق منها زوجها﴾ يعني حواء خلقها من ضلعٍ من أضلاعه[2] ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ أي وأوجد لكم من الأنعام المأكولة وهي ـ الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، ثمانية أزواج من كل نوعٍ ذكراً وأنثى **قال قتادة** : من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، كلُّ واحدٍ زوج[3] ، وسميت أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثى ، والأنثى زوج الذكر **قال المفسرون** : والإنزالُ عبارةٌ عن نزول أمره وقضائه ﴿يخلقكم في بطونِ أمهاتِكم خلقاً من بعد خلق﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً ، فإن الإنسان يكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ، ثم ينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿في ظلماتٍ ثلاث﴾ هي البطن ، والرحم ، والمشيمة[4] وهوـ الكيس الذي يغلّفُ الجنين ـ ﴿ذلكم اللهُ ربكم﴾ أي ذلكم الخالق المبدع المصوّر هو الله ربُّ العالمين ، ربكم وربُّ آبائكم الأولين ﴿له المُلْك﴾ أي له الملك والتصرف التام ، في الإيجاد والإعدام ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله ولا ربَّ لكم سواه ﴿فأنَّى تُصرفون﴾ ؟ أي فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثم بعد أن ذكَّرهم بآياته ونعمه ، حذَّرهم من الكفر والجحود لفضله وإحسانه فقال ﴿إن تكفروا فإنَّ الله غنيٌ عنكم﴾ أي إن تكفروا أيها الناس بعدما شاهدتم من آثار قدرته وفنون نعمائه ، فإن الله مستغنٍ عنكم وعن إيمانكم وشكركم وعبادتكم ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ أي لا يرضى الكفر لأحدٍ من البشر **قال الرازي** : أشار تعالى إلى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ، ولا يضره كفران ، إلا أنه لا يرضى بالكفر بمعنى أنه لا يمدح صاحبه ولا يثيبه عليه وإن كان واقعاً بمشيئته وقضائه[5] ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرض هذا الشكر منكم ، لأجلكم ومنفعتكم لا لانتفاعه بطاعتكم **قال أبو السعود** : عدم رضائه بكفر عباده لأجل منفعتهم ودفع مضرَّتهم ، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك ، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٦ . (٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٥ . (٤) يقول سيد قطب في الظلال : « في ظلمات ثلاث » هي ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه الجنين ، وظلمة البطن الذي يستقر فيه الرحم ، ويدُ الله تخلق هذه الخلية الصغيرة ، وعينُ الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو ، والقدرة على التطور ، والقدرة على الارتقاء ، كما قدر لها بارئها » الظلال ٩/ ٣٠٣ . (٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٦ .

أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ
ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ
عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا
يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

سبب فوزهم بسعادة الدارين ، ولهذا فرّق بين اللفظين فقال « ولا يرضى لعباده الكفر » وقال هنا « يرضه لكم » لأن المراد بالأول تعميم الحكم ثم تعليله بكونهم عباده[1] ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى ، بل كلٌ يؤ اخذ بذنبه ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي يعلم ما تكنه السرائر وتخفيه الضمائر ، وفيه تهديدٌ وبشارة للمطيع ﴿وإذا مسَّ الإنسان ضرٌ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرضٍ وبلاء ﴿دعا ربه منيباً إليه﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة ، مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً ﴿ثم إذا خوَّله نعمة منه﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمةً منه وفرَّج عنه كربته ﴿نسي ما كان يدعوا إليه من قبل﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه،وتمرَّد وطغى ﴿وجعل للّهِ أنداداً ليُضلَّ عن سبيله﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قل تمتَّع بكفرك قليلاً﴾ أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية ، وتلذَّذ فيها وأنت على كفرك ، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً ﴿إنك من أصحاب النار﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم ، وأنت من المخلدين فيها ﴿أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه أي أم من هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ قال القرطبي : بيَّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره[2] ﴿يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ أي حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة ، راجياً رحمة ربه وهي الجنة ، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر ؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلاً فقال ﴿قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ؟ أي هل يتساوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي[3] ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة قال الإمام الفخر : واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو القنوت ، والسجود ، والقيام ، وأما العلم ففي قوله ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين ، فالعمل هو

(١) تفسير أبي السعود ٣٠٢/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٢٣٨/١٥ . (٣) انظر حاشية زادة على البيضاوي ١٩٤/٣ .

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ﴾

البداية ، والعلم والمكاشفة هو النهاية ، وفي الكلام حذف تقديره أمَّنْ هو قانتٌ كغيره ؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر ، ثم مثّل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم[١] ﴿قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين يجمعوا بين الإيمان وتقوى الله وهي البعدُ عن محارم الله قال المفسرون : نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة والغرضُ منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة[٢] ومعنى التقوى : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، وكأن العبد بذلك يجعل بينه وبين النار وقاية[٣] ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة وهي الجنة دار الأبرار ﴿وأرضُ اللّهِ واسعة﴾ أي وأرض الله فسيحة فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان ، ولا تقيموا في أرضٍ لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله ﴿إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي إنما يعطى الصابرون جزاءهم بغير حصر ، وبدون عدد أو وزن قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف غرفاً[٤] ﴿قل إني أُمرتُ أن أعبد اللهَ مخلصاً له الدين﴾ أي قل يا محمد أُمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له قال المفسرون : وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أنَّ غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ﴿وأُمرتُ لأن أكون أول المسلمين﴾ أي وأُمرت أيضاً بأن أكون أولَ المسلمين من هذه الأمة قال القرطبي : وكذلك كان ، فإنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم وجهه لله وآمن به ودعا إليه[٥] ﴿قل إني أخافُ إنْ عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيم﴾ أي وأخاف إن عصيت أمره أن يعذبني يوم القيامة بنار جهنم قال الصاوي : والمقصود منها زجر الغير عن المعاصي ، لأنه ﷺ إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وعصمته فغيره أولى ، وذلك سنة الأنبياء والصالحين حيث يخبرون غيرهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم[٦] ﴿قل اللهَ أعبدُ مخلصاً له ديني﴾ أي قل لهم يا محمد لا أعبد إلا الله وحده ، مخلصاً له طاعتي وعبادتي من كل شائبة ، وليس هذا بتكرار لأن الأول إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة ، والثاني إخبار بخوفه من عذاب الله إن عصى أمره ، والثالث إخبار بامتثاله الأمر مع إفادة الحصر كأنه يقول : أعبد الله ولا أعبد أحداً سواه ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ صيغة أمر على جهة التهديد

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٥٠ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١٩٢ . (٣) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٨ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٢ . (٦) حاشية الصاوي ٣/ ٣٦٩ .

﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ﴾

والوعيد أي اعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام فسوف تر ون عاقبة كفركم كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي حقيقة الخسران الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة ، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران قال ابن عباس : إنَّ لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدماً في الجنة ، فإن أطاع اللهَ أُعطي ذلك ، وإن كان من أهل النار حُرِم ذلك ، فخسر نفسه وأهله ومنزله[1] ﴿ألاَ ذلك هو الخسرانُ المبين﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم ذلك هو الخسرانُ الواضح الذي ليس بعده خسرانٌ ! قال أبو حيان : بالغ في بيان الخسران بأداة التنبيه « ألاَ » وبالإشارة إليه « ذلك » وتأكيده بأداة الحصر « هو » وتعريفه بأل ووصفه بأنه بيِّن ﴿الخسران المبين﴾ أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل[2] ، ثم لما ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لهم من فوقهم ظُلَل من النار ومن تحتهم ظُلَل﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم ، وتحيط بهم من جميع جوانبهم ، ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم ، وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم ، لأنها محرقة والظلة تقي من الحر ﴿ذلك يخوِّفُ اللهُ به عباده﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع ، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده ، لينزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يا عباد فاتقون﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ، قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة[3] . . والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها بطاعة ربهم ﴿والذين اجتنبوا الطاغوتَ أنْ يعبدوها﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان ، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان ، ممن اجترز عن الشرك والعصيان ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، فيحصل كمال الترغيب والترهيب والمعنى : والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان ، وتباعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود : « الطاغوت » البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت ، والمراد به الشيطان وصف به للمبالغة[4] ﴿وأنابوا إلى الله﴾ أي رجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لهم البشرى﴾ أي لهم البشرى السارة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فبشِّر عباد* الذينَ يستمعون القوْل فيتَّبعون أحسنَه﴾ أي فبشِّر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه قال ابن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح ، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به[5] . . وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم الأحسن من الكلام ، فإذا سمعوا قولاً تبصَّروه وعملوا بما فيه ، وأحسنُ الكلام كلام

(١) التفسير الكبير ٢٦/٢٥٦ . (٢) البحر المحيط ٧/٤٢٠ .
(٣) تفسير الكشاف ٤/٩٣ . (٤) تفسير أبي السعود ٤/٣٠٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/٢٤٤ .

﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ۝١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾

الله وخير الهدي هديُ محمدﷺ وإنما وضع الظاهر ﴿فبشرْ عبادِ﴾ بدل الضمير ﴿فبشرهم﴾ تشريفاً لهم وتكريماً بالإضافة إليه سبحانه ﴿أولئك الذين هداهم اللهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه ، ووفقهم لنيل رضاه ﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ﴿أفمن حقَّ عليه كلمةُ العذاب﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى ، وجوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته ؟ لا ثم قال تعالى ﴿أفأنت تُنقذ من في النار﴾ ؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك ؟ قال القرطبي : كان النبيﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية ، وقال ابن عباس : يريد « أبا لهب » وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبيﷺ عن الإيمان ، وكرر الاستفهام « أفأنت » تأكيداً لطول الكلام والمعنى : أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه[1] ؟ ﴿لكن الذين اتقوا ربَّهم﴾ أي لكنْ المؤمنون الأبرار ، المتقون للهِ في الدنيا ، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لهم غُرفٌ من فوقها غُرفٌ مبنيَّةٌ﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجدٍ وياقوت[2] ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وعد اللهِ لا يخلفُ اللهُ الميعاد﴾ أي وعدهم الله بذلك وعداً مؤكداً لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير .

تنبيه : قال الزمخشري : أفاد قوله تعالى ﴿يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نُقَّاداً في الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلاً ، وأبينها أمارة ، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل « ولا تكن مثل عيرٍ قيد فانقادا »[3] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع . . إلى . .عند ربكم تختصمون﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣١)

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالاتهم في عبادة غير الله ، أردفه بذكر دلائل الوحدانية ، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزَّلة ، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذَّب به المكذبون ، ثم ضرب للمشرك والموحّد مثلاً في غاية الوضوح .

(١) تفسير القرطبي ٢٤٤/١٥ وهذا القول الثاني رجحه صاحب التسهيل . (٢) هذا قول ابن عباس . (٣) تفسير الكشاف ٩٣/٤ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ
نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

اللغــــة : ﴿سلكـه﴾ أدخله ﴿ينابيع﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء النابع من الأرض ﴿يهيج﴾ ييبس قال الأصمعي : هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتُها وولّى[1] وقال الجوهري : هاج النَّبْت هياجاً إذا يبس ، وأرضٌ هائجة إذا يبس بقلُها أو اصفر[2] ﴿حُطاماً﴾ فُتاتاً وهشيماً ، من تحطَّم العود إذا تفتَّت من اليبس ﴿شرح﴾ فتح ووسَّع ﴿قاسية﴾ قسا القلبُ : إذا صلب وكذلك عتـا وعسا ،وقلبٌ قاسٍ أي صلب لا يرقُّ ولا يلين ﴿مثاني﴾ مكرراً فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تقشعر﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الخزي﴾ الذل والهوان ﴿متشاكسون﴾ متنازعون ومختلفون ، ورجلٌ شكس : شرس الخُلق والطباع .

التفسيــر : ﴿ألـم تـر أنَّ اللـهَ أنـزل من السَّمـاء ماءً﴾ أي ألم تر أيها الإِنسان العاقـل أنَّ الله بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فسلكـه ينابيـع فـي الأرض﴾ أي أدخله مسالك وعيوناً في الأرض وأجراه فيها قال المفسرون : وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر ، تحبسه الأرض ثم ينبع شيئاً فشيئاً قال ابن عباس : ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكنْ عروق في الأرض تغيِّره[3] ﴿ثـم يُخـرج بـه زرْعاً مُختلفاً ألوانـُهُ﴾ أي ثم يُخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الـزروع ، المختلفة الأشكال والألوان ، من أحمر وأبيض وأصفر ، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك قال البيضاوي : ﴿مختلفاً ألوانـه﴾ أي أصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أوكيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما[4] ﴿ثـم يهيـجُ فتـراه مُصْفراً﴾ أي ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفراً ﴿ثـم يجعلـه حُطامـاً﴾ أي ثم يصبح فتاتاً وهشيماً متكسـراً ﴿إنَّ فـي ذلـك لذكـرى لأولـي الألبـاب﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة ، ودلالةً على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة . . والآية فيها تمثيلٌ لحياة الإِنسان بالحياة الدنيا ، فمهما طال عمر الإِنسان فلا بدَّ من الانتهاء ، إلى أن يصير مصفر اللون ، متحطم الأعضاء ، متكسراً كالزرع بعد نضرته ، ثم تكون عاقبته الموت قال ابن كثير : هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء ، ثم تعود عجوزاً شوهاء ، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرماً ، كبيراً ضعيفاً ، وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[5] ﴿أفمـن شـرحَ اللـهُ صـدْرهُ للإِسـلام﴾ أي وسَّع صدره للإِسلام ، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فهـو علـى نـورٍ مـن ربـه﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه ، وعلى هـدىً من ربه بتنوير الحق في قلبه ، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه سياق الكلام تقديره كمن هو أعمى القلب ،

(١) القرطبي ١٥/٢٤٦ . (٢) انظر الصحاح والقاموس المحيط . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٢١٧ .
(٤) تفسير البيضاوي ٢/١٥٤ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢١٧ .

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

معرضٌ عن الإسلام ؟ قال الطبري : وتُرك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين وبدلالة ما بعده وتقديره : كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق ، واتباع الهدى[١] ؟ ﴿فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله ، بـ « ذكر الله » القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر . . ولما بيّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال ﴿اللهُ نزَّل أحسن الحديث﴾ أي اللهُ نزَّل القرآن العظيم أحسن الكلام قال أبو حيان : والابتداءُ باسم « اللهُ » وإسناد « نزَّل » لضميره ، فيه تفخيمٌ للمُنزل ، ورفعٌ من قدره كما تقول : الملكُ أكرم فلاناً ، فإنه أفخم من أكرم الملك فلاناً ، وحكمةُ ذلك البداءةُ بالأشرف[٢] ﴿كتاباً متشابهاً﴾ أي قرآناً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة ، والبلاغة ، والتناسب ، بدون تعارضٍ ولا تناقض ﴿مثاني﴾ أي تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام ، والحلال والحرام ، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأم أو ملل قال الطبري : تُثنَّى - أي تكرر - فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج[٣] ﴿تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآنُ ، هيبةً من الرحمن وإجلالاً لكلامه ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبُهم إلى ذكر الله﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله قال المفسرون : إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم وقال العارفون : إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثرٌ من عالم الجمال عاشوا[٤] قال ابن كثير : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم ، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه[٥] ﴿ذلك هُدى اللّهِ يهدي به من يشاءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفتُه هو هدى الله يهدي به من شاء من خلقه ﴿ومن يضلل اللهُ فما له من هاد﴾ أي ومن يخذلْه اللهُ فيجعل قلبه قاسياً مظلماً ، فليس له مرشدٌ ولا هاد بعد الله ﴿أفمن يتَّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ أي فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد ، وخبره محذوف تقديره كمن هو آمنٌ من العذاب ؟ قال المفسرون : الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه ، وأيدي الكفار

(١) تفسير الطبري ١٣٤/٢٣ . (٢) البحر المحيط ٤٢٢/٧ . (٣) الطبري ١٣٥/٢٣ .
(٤) التفسير الكبير ٢٧٢/٢٦ . (٥) مختصر ابن كثير ٢١٧/٣ .

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾

مغلولة يوم القيامة ، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم **﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾** أي وتقول خزنة جهنم للكافرين : ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي **﴿كذَّب الذين من قبلهم فأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعرون﴾** أي كذَّب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهةٍ لا تخطر ببالهم **﴿فأذاقهُم اللهُ الخزيَ في الحياةِ الدنيا﴾** أي فأذاقهم الله الذلَّ والصغار والهوان في الدنيا **﴿ولعذابُ الآخرة أكبرُ﴾** أي ولعذاب الآخرة الذي أُعدَّ لهم أعظم بكثير من عذاب الدنيا **﴿لو كانوا يعلمون﴾** أي لو كان عندهم علمٌ وفهم ما كذبوا **﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾** أي ولقد بينا ووضحنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة ، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه **﴿لعلهم يتذكرون﴾** أي لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر **﴿قرآناً عربياً غيرَ ذي عوج﴾** أي حال كونه قرآناً عربياً لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، ولا تعارض ولا تناقض **﴿لعلَّهم يتقون﴾** أي لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه . . ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله ولمن يوحِّده فقال **﴿ضرب اللهُ مثلاً رجُلاً فيه شركاء مُتشاكسون﴾** أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل : رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق ، بينهم اختلاف وتنازع ، يتجاذبونه في حوائجهم ، هذا يأمره بأمرٍ وذاك يأمره بمخالفته ، وهو متحيِّرٌ موزَّع القلب ، لا يدري لمن يرضي ؟ **﴿ورجلاً سلماً لرجل﴾** هذا من تتمة المثل أي ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد ، حسن الأخلاق ، فهو عبد مملوك لسيد واحد ، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته ، ولا يلقى من سيده إلا إحساناً **﴿هل يستويان مثلاً﴾** أي هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال ، وراحة البال ؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحِّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى . **قال ابن عباس** : هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص(١) **وقال الرازي** : وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد(٢) **﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** لما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى : الحمد لله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فهم لفرط جهلهم يشركون بالله **﴿إنكَ ميّتٌ وإنهم ميّتون﴾** أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء ، ولا يخلَّد

(١) مختصر ابن كثير ٢١٩/٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٧٧/٢٦

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

أحد في هذه الدار ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة ، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين ويفصل بينكم أحكم الحاكمين .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق . . إلى . . لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ من آية (٣٢) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت ، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك ، وأنه تعالى يفصل بينهم ، ذكر هنا جزاء كلٍ من الفريقين ، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتدادهم بشفاعة الأوثان والأصنام .

اللغة : ﴿مثوى﴾ مأوى ومقام ، مشتقٌ من ثَوى بالمكان إذا أقام به ﴿يخزيه﴾ يُهينه ويُذله ﴿اشمأزَّتْ﴾ نفرتْ وانقبضتْ ﴿فاطر﴾ خالق ومبدع ﴿يحتسبون﴾ يظنون ويؤملون يقال : جاءه الأمر من حيث لا يحتسب أي من حيث لا يظن ﴿حاق﴾ نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خولناه﴾ منحناه وأعطيناه تفضلاً وكرماً ﴿معجزين﴾ فائتين من العذاب ﴿يقدر﴾ يضيق ويُقتِّر .

* ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝٣٢ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾

التفسير : ﴿فمنْ أظلمُ ممَّن كذَبَ على اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وكذَّب بالصِّدقِ إذْ جاءه﴾ أي وكذَّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل ؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك ، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أليس في جهنم مثوىً للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين ؟ والاستفهام هنا تقريري أي بلى لهم مأوى ومكان ﴿والذي جاء بالصدق وصدَّق به﴾ أي وأما الذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء ، والذين صدَّقوا به وهم المؤمنون أتباعُ الرسل ﴿أولئك هم المتقون﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور ، والقصور ، والملاذِّ ، والنعيم ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الذي ينالونه هو ثواب كل محسن ، أحسن في هذه الحياة قال بعض

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾

المفسرين : « الذي جاء بالصدق » هو محمدﷺ « وصدَّق به » هو أبو بكر رضي الله عنه[1] ، والاختيارُ أن يكون على العموم حتى يشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام ، وكل من دعا إلى هـذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل ، ويدل عليه ﴿أولئـك هـم المتقـون﴾ بصيغة الجمع ، وهذا اختيار ابن عطية ﴿ليُكـفِّرَ اللّـهُ عنهم أسْـوأ الـذي عملـوا﴾ أي هؤلاء الذين صدَّقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها ﴿ويجْزيـهم أجرهُـم بأحسـن الـذي كانـوا يعْملـون﴾ أي ويثيبهـم على طاعاتهم في الدنيا بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرماً قال المفسرون : العـدلُ أن تُحسب الحسنات وتُحسب السيئات ، ثم يكون الجزاء ، والفضلُ هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين ، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم ، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم ، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسـن الأعمال ، فتزيد حسناتُهم وتعلو وترجّح كفة الميزان ، وهـذا من زيادة الكرم والإحسان ﴿أليسَ اللّـهُ بكـافٍ عبْـده﴾ ؟ الهمزة للتقريرَ أي أليس الله كافياً عبده ورسوله محمداًﷺ من شر من يريده بسوء ؟ قال أبو السعود : هذه تسليةٌ لرسول اللهﷺ عما قالت له قريش : لتكفـنَّ عن شتم آلهتنا ، أو ليصيبـنَّك منها خبل أو جنون[2] وقال أبو حيان : قالت قريش : لئن لم ينته محمد عن سبِّ آلهتنا وتعيبنا لنسلِّطنها عليه فتصيبه بخبَل وتعتريه بسوء ، فأنزل الله ﴿أليس اللـه بكـافٍ عبـده﴾ أي هو كافٍ عبده ، وإضافته إليه تشريفٌ عظيمٌ لنبيِّه[3] ﴿ويخوفونـك بالذيـن مـن دونـه﴾ أي ويخوفونك يا محمد بهذه الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ﴿ومـنْ يُضـلل اللـهُ فما لـه مـن هـاد﴾ أي ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحدٌ كائناً من كان ﴿ومـن يهـدِ اللـهُ فما لـه مـن مضـل﴾ أي ومن أراد الله سعادته فهداه إلى الحق ، ووفقه لسلوك طريق المهتدين ، فلن يقدر أحدٌ على إضلاله ﴿أليس اللـهُ بعزيـزٍ ذي انتقـام﴾ ؟ أي هو تعالى منيع الجناب لا يُضام من لجأ إلى بابه ، وهو القادر على أن ينتقم من أعدائه لأوليائه ، لأنه غالب لا يُغلب ، ذو انتقام من أعدائه ، وفي الآية وعيدٌ للمشركين ، ووعدٌ للمؤمنين ﴿ولـئن سألتهُـم مـن خلَـقَ السـموات والأرضَ ليقولُـنَّ اللـهُ﴾ هذه الآية إقامة برهان على تزييف طريقة عبدة الأوثان أي ولئن سألت يا محمـد هؤلاء المشركين عمَّـن خلق السموات والأرضَ ليقولُـنَّ اللهُ خالقهما ، لوضوح الدليل على تفرده تعالى بالخالقية قال الرازي : إنَّ العلم بوجود الإله القادر الحكيم ، لا نزاع فيه بين جمهور الخلائق ، وفطرةُ العقل شاهدةٌ بصحة هذا العلم ، فإنَّ من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض ، وفي عجائب أحوال النبـات

(١) روي هذا عن مجاهد وقتادة ، والراجح أن الآية على العموم في الرسل والمؤمنين .
(٢) تفسير أبي السعود ٤/٣١٠ . (٣) البحر المحيط ٧/٤٢٩ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

والحيوان ، وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحِكَم الغريبة ، والمصالح العجيبة ، علم أنه لا بدَّ من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم ، ولهذا أقر المشركون بوجود الله[1] ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً : أخبروني ـ بعد أن تحققتم أن خالق العالم هو الله ـ عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إنْ أرادنيَ اللهُ بضُرٍ هل هنَّ كاشفاتُ ضُرِّه﴾ ؟ أخبروني لو أراد الله أن يصيبني بشدة أو بلاء ، هل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك السوء والضُّرَّ ؟ ﴿أو أرادني برحمةٍ هل هُنَّ ممسكاتُ رحمته﴾ ؟ أي ولو أراد الله بي نفعاً من نعمة ورخاء هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة ؟ والجواب محذوفٌ لدلالة الكلام عليه يعني فسيقولون : لا ، لا تكشف السوء ، ولا تمنع الرحمة[2] ﴿قل حسبيَ اللهُ عليه يتوكل المتوكلون﴾ أي الله كافيني فلا ألتفت إلى غيره ، وعليه وحده يعتمد المعتمدون ، والغرضُ الاحتجاجُ على المشركين في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع ، وإقامة البرهان على الوحدانية ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إني عاملٌ﴾ أي إني عاملٌ على طريقتي ، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخزيه﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان ﴿ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم﴾ أي وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع وهو عذاب النار ، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم ؟ والغرض التهديد والتخويف قال أبو السعود : وفي الآية مبالغة في الوعيد ، وإشعارٌ بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده ، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام ، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر[3] ﴿إنّا أنزلنا عليك الكتابَ للناس بالحقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه ، الساطع في برهانه ، لجميع الخلق ، بالحقِّ الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلَّ فإنما يضل عليها﴾ أي فمن اهتدى فنفعه يعود عليه ، ومن ضلَّ فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وما أنتَ عليهم بوكيل﴾ أي لستَ بموكَّل عليهم حتى تجبرهم على الإيمان قال الصاوي : وفي هذا تسلية له ﷺ والمعنى : ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه ، وإنما هو بيدنا ، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال[4]

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٥٩ .
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٤ .

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ

﴿اللهُ يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي الوفاة الصغرى قال في التسهيل : هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين : أحدهما : وفاة كاملة حقيقية وهي الموت ، والآخر : وفاة النوم لأن النائم كالميت ، في كونه لا يُبصر ولا يسمع ، ومنه قوله تعالى ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ وفي الآية عطف والتقدير : ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها[١] وقال ابن كثير : أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة ـ الملائكة ـ الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام[٢] ﴿فيمسكُ التي قضى عليها الموتَ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموتَ فلا يردها إلى البدن ﴿ويُرسل الأُخرى إلى أجلٍ مسمًّى﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود ، هو أجل موتها الحقيقي قال ابن عباس : إنَّ أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام ، فتتعارف ما شاء الله لها ، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها ، أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[٣] قال القرطبي : وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يحيي ويميت ، ويفعل ما يشاء ، لا يقدر على ذلك سواه[٤] ، ولهذا قال ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ أي إن في هذه الأفعال العجيبة لعلامات واضحة قاطعة ، على كمال قدرة الله وعلمه ، لقومٍ يجيلون أفكارهم فيها فيعتبرون ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ أمْ للإضراب أي لم يتفكروا بل اتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام ، فانظر إلى فرط جهالتهم حيث اتخذوا من لا يملك شيئاً أصلاً شفعاء لهم عند الله قال ابن كثير : هذا ذمٌ للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله ـ وهي الأصنام ـ والأوثان التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهي لا تملك شيئاً من الأمر ، وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمعٌ تسمع به ، ولا بصرٌ تبصر به ، بل هي جمادات أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات[٥] ﴿قل أولَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ الاستفهام توبيخي أي قل لهم يا محمد : أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا على هذه الصفة جمادات لا تقدر على شيء ، ولا عقل لها ولا شعور ؟ ﴿قل لله الشفاعةُ جميعاً﴾ أي قل لهم : الشفاعةُ للّهِ وحده ، لا يملكها أحدٌ إلا الله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ﴿له ملكُ السمواتِ والأرض﴾ أي هو المتصرف في المُلك والملكوت قال البيضاوي : أي هو تعالى مالك المُلكِ كله ، لا يملك

(١) التسهيل ٣/١٩٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٢ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٠ . (٤) القرطبي ١٥/ ٢٦٣ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٢ .

تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

أحدٌ أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه[1] ﴿ثم إليه تُرْجعون﴾ أي ثم مصيركم إليه يوم القيامة ، فيحكم بينكم بعدله ، ويجازي كلاً بعمله . . ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أفعالهم القبيحة فقال ﴿وإذا ذُكر اللهُ وحده﴾ أي وإذا أُفرد الله بالذكر ، ولم يذكر معه آلهتهم وقيل أمام المشركين : لا إله إلا اللهُ ﴿اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي نفرت وانقبضت من شدة الكراهة قلوب هؤلاء المشركين ﴿وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ أي وإذا ذكرت الأوثان والأصنام إذا هم يفرحون ويُسرون قال الإمام الفخر : هذا نوع آخر من قبائح المشركين ، فإنك إذا ذكرتَ الله وحده وقلت : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ظهرتْ آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرتَ الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وذكر الأصنام الجمادات رأسُ الجهالات والحماقات ، فنفرتُهم عن ذكر الله ، واستبشارهم بذكر الأصنام ، من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ ، والحُمق الشديد[2] ﴿قل اللَّهُم فاطر السمواتِ والأرض﴾ أي قل يا ألله يا خالق ومبدع السموات والأرض ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يا عالم السرِّ والعلانية ، يا من لا تخفى عليه خافية ، مما هو غائب عن الأعين أو مشاهد بالأبصار ﴿أنتَ تحكم بين عبادكَ فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي أنت تفصل بين الخلائق بعدلك وقضائك ، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين قال في البحر : لما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله ، واستبشارهم بذكر الأصنام أمر رسوله أن يدعوه بأسمائه العظمى من القدرة والعلم ليفصل بينه وبين أعدائه ، وفي ذلك وعيد للمشركين وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام[3] وقال الصاوي : أي التجىءْ إلى ربك بالدعاء والتضرع فإنه القادر على كل شيء[4] ﴿ولو أنَّ للذين ظلموا﴾ أي ولو أنَّ هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال ، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لافتدوا به من سوءِ العذاب يوم القيامة﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر ، فديةً لأنفسهم من ذلك العقاب الشديد يوم القيامة ﴿وبدا لهمْ منَ اللّهِ ما لم يكونوا يحْتسبون﴾ أي وظهر له من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم . قال أبو السعود : وهذه غايةٌ من الوعيد لا غاية وراءها ، ونظيرها في الوعد ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٨٦ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٤٣٢ . (٤) حاشية الصاوي ٣/ ٣٧٥ .

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

لهم من قُرَّة أعين﴾[1] ﴿وبدا لهم سيئاتُ ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به قال ابن كثير: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا[2] ﴿فإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيءٌ من الشدة والبلاء، تضرَّع إلى الله وأناب إليه ﴿ثم إذا خوَّلناه نعمةً منّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلا عليه وكرماً ﴿قال إنَّما أوتيتُه على علم﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد إنما أعطيته على علمٍ مني بوجوه المكاسب والمتاجر ﴿بل هي فتنةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له، لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ ﴿ولكنَّ أكثرهُم لا يعْلمون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار وابتلاء فلذلك يبطرون ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال ﴿إنما أوتيتُه على علمٍ عندي﴾ ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحُطام ﴿فأصابهُم سيئاتُ ما كسبوا﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين - كفار قريش - ﴿سيصيبهم سيئاتُ ما كسبوا﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدرٍ صناديدهم[3] ﴿وما هم بمعجزين﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً.. ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الحال فقال ﴿أولم يعْلموا أنَّ اللّهَ يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدر﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسِّع الرزق على قوم، ويضيِّقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو غبائه، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ أي إن في الذي ذكر لعبراً وحججاً لقوم يصدِّقون بآيات الله قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقتيره قد يكون إعظاماً[4].

(١) تفسير أبي السعود ٤/٣١١. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٤. (٣) تفسير البيضاوي ٢/١٥٦. (٤) تفسير القرطبي ١٥/٢٦٧.

* قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ

قال الله تعالى: ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم. . إلى . . وقيل الحمدُ لله رب العالمين﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٥) نهاية السورة

المناسَبَة : لما ذكر تعالى أحوال الفجرة المشركين ، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان ، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان ، وختم السورة بذكر عظمة الله وجلاله يوم الحشر الأكبر ، حيث يكون العدل الإلهي والقسطاسُ المستقيم ، ويساق السعداء إلى الجنة زمراً ، والأشقياء إلى النار زمراً ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً . .﴾ الآية .

اللغَة : ﴿بغتةً﴾ فجأة ﴿مثوى﴾ مكان إقامة يقال : ثوى بالمكان أقام فيه ﴿مقاليد﴾ خزائن ومفاتيح ﴿زُمراً﴾ جماعات جماعات جمع زُمرة وهي الجماعة ﴿خزنتُها﴾ حُرَّاسها الموكلون عليها ﴿نتبوأ﴾ تبوأ المكانَ حلَّ ونزل فيه ﴿حافين﴾ محيطين به من أطرافه وجهاته .

التفسِير : ﴿قُل يَا عِبادي الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِم﴾ أخبر يا محمد عبادي المؤمنين الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لا تقنطوا من رحمةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء ، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله ﴿قل يا عبادي﴾ وقال ابن كثير : هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت[١] ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿من قبل أن يأتيكم العذابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لا تُنصرون﴾ أي ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه ﴿واتَّبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والزموا أحسن كتاب أنزل إليكم فيه سعادتكم وفلاحكم ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون﴾ أي من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أنْ تقُول نفسٌ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان ﴿يا حسرتا على

(١) حاشية الصاوي ٣/٣٧٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٧ . (٣) الكشاف ٤/١٠٥ .
(٤) القرطبي ١٥/٢٨٣ . (٥) نفس المرجع السابق ١٥/٢٦٨ .

عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

ما فرَّطتُ في جنبِ اللَّهِ﴾ أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه قال **مجاهد**: يا حسرتا على ما ضيعت من أمر الله[1] **﴿وإن كنتُ لمن الساخرين﴾** أي وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه قال **قتادة**: لم يكفه أن ضيَّع طاعة الله حتى سخر من أهلها **﴿أو تقول لو أنَّ اللَّهَ هداني لكنت من المتقين﴾**«أو»للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا والمعنى لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق ، وأطعت الله ، وكنت من عباده الصالحين قال **ابن كثير** : يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين ، المطيعين لله عزَّ وجل[2] **﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أنَّ لي كرَّةً فأكون من المحسنين﴾** أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله ، وأحسن سيرتي وعملي **﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾** هو جواب قوله **﴿لو أنَّ الله هداني﴾** والمعنى بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب **﴿فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾** أي فكذبت بالآيات ، وتكبرت عن الإيمان ، وكنت من الجاحدين قال **الصاوي** : إن الكافر أولاً يتحسر ، ثم يحتج بحجج واهية ، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[3] ، ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى **﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** **﴿ويوم القيامةِ ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مُسودَّة﴾** أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم **﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾** استفهام تقريري أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان ، وعن طاعة الرحمن ؟ بلى إنَّ لهم منزلاً ومأوى في دار الجحيم . . ولما ذكر حال الكاذبين على الله ، ذكر حال المتقين لله فقال **﴿ويُنجِّي اللهُ الذينَ اتَّقوا بمفازتهم﴾** أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار **﴿لا يمسُّهم السُّوءُ ولا هم يحزنون﴾** أي لا ينالهم هلعٌ ولا جزع ، ولا هم يحزنون في الآخرة ، بل هم آمنون **﴿في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾** ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد ، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال **﴿اللهُ خالقُ كل شيءٍ﴾** أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، لا إله غيره ولا ربَّ سواه **﴿وهو على كل شيءٍ وكيل﴾** أي هو القائم بتدبير كل شيء **﴿له**

(١) القرطبي ١٥/ ٢٧١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٧ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٧ .

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مقاليدُ السمواتِ والأرض﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء ، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره قال ابن عباس : « مقاليد » مفاتيح ، وقال السدي : خزائن السمواتِ والأرض بيده[١] ﴿والذين كفروا بآياتِ اللّهِ أولئك هم الخاسرون﴾ أي والذين كذَّبوا بآيات القرآن الظاهرة ، والمعجزات الباهرة ، أولئك هم الخاسرون أشدَّ الخسران ﴿قل أفغيرَ اللّهِ تأمرُوني أعبُد أيُّها الجاهلون﴾ ؟ أي قل يا محمد أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون ؟ قال ابن كثير : إن المشركين من جهلهم دعوا رسولَ اللّهِﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهَه فنزلت الآية[٢] ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلِك﴾ اللام موطئة للقسم أي واللهِ لقد أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك ﴿لئن أشركت ليحبطنَّ عملُك﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ ويفسدنَّ عملك الصالح ﴿ولتكوننَّ من الخاسرين﴾ أي ولتكونَنَّ في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك . . وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، وإلاَّ فالرسولﷺ قد عصمه الله ، وحاشا له أن يشرك بالله ، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد قال أبو السعود : والكلام واردٌ على طريقة الفرض لتهييج الرسل ، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه[٣] ﴿بل اللهَ فاعبد﴾ أي أخلص العبادة لله وحده ، ولا تعبد أحداً سواه . ﴿وكنْ من الشاكرين﴾ أي وكن من الشاكرين لإنعام ربك ﴿وما قَدروا اللَّهَ حقَّ قدْره﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته ، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه قال أبو حيان : أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه ، وما قدروه في أنفسهم حقَّ تقديره ، إذ أشركوا معه غيره ، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة[٤] . . ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه فقال ﴿والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ الجملة حالية والمعنى ما عظَّموه حقَّ تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة ، التي هي غاية العظمة والجلال ، فالأرض مع سعتها وبسطتها في قبضة الرحمن يوم القيامة ﴿والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه﴾ والسموات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه ، قال سفيان بن عُيينة : كل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه . وقال ابن كثير : وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف . وفي الحديث « يقبضُ اللهُ تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملكُ أين ملوكُ الأرض ؟ »[٥]

(١) القرطبي ١٥/ ٢٧٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٤ .
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٣٩ . (٥) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزَّه الله وتقدس عما يصفه به المشركون من صفاتِ العجز والنقص ، ثم ذكر تعالى أهوال الآخرة فقال ﴿ونُفخ في الصور﴾ هو قرنٌ ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله ، والمراد بالنفخة هنا « نفخة الصَّعق » التي تكون بعد نفخة الفزع قال ابن كثير : وهي النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض[١] ﴿فصعِق منْ في السَّموات ومن في الأرض﴾ أي فخَّر ميتاً كل من في السموات والأرض ﴿إلاَّ من شاء اللهُ﴾ أي إلاَّ من شاء الله بقاءه كحملة العرش ، والحور العين والولدان ﴿ثم نُفخ فيه أُخرى﴾ أي نُفخ فيه نفخةٌ أخرى وهي نفخةُ الإحياء ﴿فإذا هم قيامٌ ينْظُرون﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يُؤمرون ﴿وأشرقتِ الأرضُ بنور ربِّها﴾ أي وأضاءت أرض المحشر بنور الله يوم القيامة ، حين تجلى الباري جل وعلا لفصل القضاء بين العباد ﴿ووُضع الكتابُ﴾ أي أحضرت صحائف أعمال الخلائق للحساب ﴿وجيء بالنبيّين والشهداء﴾ أي وجيء بالأنبياء ليسألهم رب العزة عما أجابتهم به أممهم ، وبالشهداء وهم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم[٢] ، وقال السدي : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ﴿وقُضي بينهم بالحقِّ﴾ أي وقُضي بين العباد جميعاً بالقسط والعدل ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي وهم في الآخرة لا يظلمون شيئاً من أعمالهم ، لا بنقص ثواب ، ولا بزيادة عقاب قال ابن جبير : لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿ووُفِّيتْ كلُّ نفسٍ ما عملتْ﴾ أي جوزي كل إنسانٍ بما عمل من خيرٍ أو شر ﴿وهو أعلمُ بما يفعلون﴾ أي هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان ، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك تشهد الكتب إلزاماً للحجة . . ثم فصَّل تعالى مآل كلٍ من الأشقياء والسعداء فقال ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمراً﴾ أي وسيق الكفرة المجرمون إلى نار جهنم جماعاتٍ جماعات ، كما يساق الأشقياء في الدنيا إلى السجون ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابُها﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبواب جهنم فجأة لتستقبلهم ﴿وقال لهم خزنتُها ألم يأتِكُم رسُلٌ منكم يتلُون عليكمْ آياتِ ربكم﴾ ؟ أي وقال لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً : ألم يأتكم رسلٌ من البشر يتلون عليكم الكتب المنزلة من السماء ؟ ﴿ويُنذِرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ؟ أي ويخوفونكم من شر هذا اليوم العصيب ؟ ﴿قالوا بلَى

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٩ . (٢) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر كما في قوله تعالى ﴿وجاءت كل نفسٍ معها سائق وشهيد﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب ، والشاهد يشهد عليها وهو الملك الموكل بالانسان .

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

ولكنْ حقَّتْ كلمةُ العذاب على الكافرين﴾ أي قالوا بلى قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقاوة قال القرطبي : وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ، والمراد بكلمة العذاب قوله تعالى ﴿لأملأنَّ جهنم من الجنَّة والناس أجمعين﴾[1] ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي قيل لهم ادخلوا جهنَّم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً ، بلا زوال ولا انتقال ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الايمان بالله وتصديق رسله ﴿وسيق الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زُمَراً﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات راكبين على النجائب قال القرطبي : سوقُ أهل النار طردُهم إليها بالخزي والهوان ، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان ، وسوقُ أهل الجنان سوقُ مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين ، كما يفعل بالوافدين على الملوك ، فشتَّان ما بين السوقين[2] ﴿حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابُها﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابُها كقوله تعالى ﴿جناتُ عدنٍ مفتَّحة لهم الأبواب﴾ قال الصاوي : والحكمةُ في زيادة الواو هنا « وفُتحت » دون التي قبلها ، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم ، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم ، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[3] ﴿وقال لهم خزنتُها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ أي وقال لهم حراس الجنة : سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طبتم﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي والذنوب ، فادخلوا الجنة دار الخلود ، قال البيضاوي : وجواب « إذا » محذوف ، للدلالة على أنَّ لهم من الكرامة والتعظيم ، ما لا يحيط به الوصف والبيان[4] قال ابن كثير : وتقديره إذا كان هذا سُعِدوا ، وطابوا ، وسُرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم[5] ﴿وقالوا الحمدُ للّهِ الذي صدقنا وعده﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها : الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة قال المفسرون : والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ ﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي وملَّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه وننزل فيها حيث نشاء ، لا ينازعنا فيها أحد ﴿فنعم أجرُ العاملين﴾ أي فنعم أجر

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٥ .
(٣) حاشية الصاوي ١٣/ ٣٨١ . (٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٧ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٢ .

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

العاملين بطاعة الله الجنة ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن ، محدقين به من كل جانب ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي يسبحون الله ويمجدونه تلذذاً لا تعبداً ﴿وقضي بينهم بالحقّ﴾ أي وقُضي بين العباد بالعدل ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ أي وقيل الحمد لله على عدله وقضائه قال المفسرون : القائل هم المؤمنون والكافرون ، المؤمنون يحمدون الله على فضله ، والكافرون يحمدونه على عدله قال ابن كثير : نطق الكون أجمعه ، ناطقه وبهيمه ، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[1] .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿تكفروا . . وتشكروا﴾ وبين ﴿يرجو . . ويحذر﴾ وبين ﴿فوقهم . . وتحتهم﴾وبين﴿ضر . .ورحمة﴾ وبين ﴿الغيب . . والشهادة﴾ وبين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿اهتدى . . وضل﴾ الخ .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿يتوكل المتوكلون﴾ وكذلك في قوله ﴿أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ .

٣ ـ الأسلوب التهكمي ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ إطلاق الظلة عليها تهكم لأنها محرقة ، والظلة تقي من الحر .

٤ ـ المقابلة الرائعة ﴿وإذا ذُكر اللهُ وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . .﴾ الآية فقد قابل بين الله والأصنام ، وبين السرور والاشمئزاز ، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً . .﴾ والمقابلةُ أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ ؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه ؟ ومثله ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل﴾ ؟ أي كمن هو كافرٌ جاحدٌ لربه ؟

٦ ـ الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قل تمتع بكفرك﴾ ومثله ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ للمبالغة في الوعيد .

٧ ـ المجاز المرسل ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ ؟ أطلق المسبب وأراد السبب ، لأن الضلال سبب لدخول النار .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٣ .

٨ ـ الاستعارة ﴿له مقاليد السمٰوات والأرض﴾ أي مفاتيح خيراتها ، ومعادن بركاتها فشبَّه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد ، بمعنى المفاتيح ، ومعنى الآية خزائن رحمته وفضله بيده تعالى .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسمٰواتُ مطوياتٌ بيمينه﴾ مثَّل لعظمته وكمال قدرته ، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه ، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية ، قال في تلخيص البيان : وفي الآية استعارة ومعنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض ، فتستولي عليه كفه ، ويحوزه ملكه ، ولا يشاركه غيره ، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بيمينه .

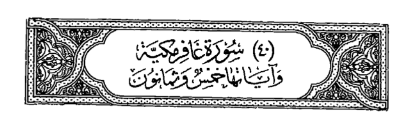
١٠ ـ الكناية ﴿أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطتُ في جنب الله﴾ جنبُ الله كنايةٌ عن حقٍّ الله وطاعته ، وهذا من لطيف الكنايات .

١١ ـ الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ والأصل : لا تقنطوا من رحمتي قال علماء البيان : وفي الآية الكريمة ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . .﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان : منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم ، ومنها إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ﴿من رحمة الله﴾ ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات ، ومنها الإتيان بالجملة المعرَّفة الطرفين المؤكدة بإن وضمير الفصل ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ .

١٢ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير ، وهو نهاية في الروعة والجمال اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿ونُفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . . ووفيت كل نفسٍ ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ ألا تأخذك روعة هذا البيان ، برونقه ، وجماله ، وأدائه ، فينطلق لسانك بذكر الرحمن ؟ !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة غافر مكية ، وهي تُعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية ، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين « الحق والباطل » و«الهدى والضلال» ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة ، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال ، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى ، وآياته العظمى ، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله ، فمع وضوح الحق وسطوعه ، جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون .

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلم يفلت منهم إنسان .

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب ، يأتي مشهد حملة العرش ، في دعائهم الخاشع المنيب .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا العباد واقفون للحساب ، بارزون أمام الملك الديان ، يغمرهم رهبة وخشوع ، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع ، وفي ذلك الموقف الرهيب ، واليوم العصيب ، يلقى الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان ، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار ، ففرعون يريد - بكبريائه وجبروته - أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام ، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة ، لم تُعرض في قصة موسى من قبل ، ألا وهي ظهور رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يُخفي إيمانه ، يَصدع بكلمة الحق في تلطفٍ وحذر ، ثم في صراحةٍ ووضوح ، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره ، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين .

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية ، الشاهدة بعظمة الله ، الناطقة بوحدانيته وجلاله ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته ، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى ، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة ، والكافر يتخبط في الظلام .

* وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين ، والطغاة المتجبرين ، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون .

التسمية : سميت « سورة غافر » لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل ـ الذي هو من صفات الله الحسنى ـ في مطلع السورة الكريمة ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون .

* * *

اللغة : ﴿غافر﴾ الغفْر : السترُ والمحو والتكفير ﴿الطَّوْل﴾ الإنعام والتفضل ﴿يُدحضوا﴾ يبطلوا ويزيلوا ، يقال : الباطلُ داحضٌ ، لأنه يزلق ويزل فلا يستقر ﴿حقت﴾ وجبت ولزمت ﴿مقت﴾ المقت : شدة البغض ﴿الرُّوح﴾ الوحيُ والنبوة سمي رُوحاً لأن القلوب تحيا به كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿التَّلاق﴾ الاجتماع في الحشر ﴿بارزون﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿الآزفة﴾ اسم للقيامة سميت آزفة لقربها ، يقال أزف الشيء إذا اقترب ﴿واق﴾ دافع يدفع عنهم العذاب .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿حم﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإرشاد على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تنزيلُ الكتاب من الله﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ﴿العزيز العليم﴾ أي العزيز في ملكه ، العليم في خلقه ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد ، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب ﴿شديد العقاب﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى ، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذي الطَّول﴾ أي ذي الفضل والإنعام ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا الله ، ولا ربٌ في الوجود سواه ﴿إليه المصير﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم ، وإنما قدَّم المغفرة والتوبة على العقاب ، للإشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت

(١) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة ، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (حاميم) وتسمى الحواميم السبع أو آل حاميم .

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ

عذابه ، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين ، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن ـ بعد وضوح آياته وظهور إعجازه ـ إلا الجاحدون لآيات الله ، المعاندون لرسله ﴿فلا يغررك تقلُّبهم في البلاد﴾ أي فلا تغترَّ أيها العاقل بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا ، بالمساكن والمزارع ، والممالك والتجارات ، فإنهم أشقى الناس ، وما هم عليه من النعيم متاعٌ قليل ، وظلٌ زائل ، فإني وإن أمهلتهم لا أهملُهم ، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيزٍ مقتدر قال في التسهيل : والآية تسليةٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ شديد للكفار[١] ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة أقوام كثيرون ، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وهمَّتْ كلُّ أمةٍ برسولهم ليأخذوه﴾ أي وهمت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به قال ابن كثير : أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله[٢] ﴿وجادلوا بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿فأخذتُهم﴾ أي فأهلكتهم إهلاكاً مريعاً ﴿فكيف كان عقاب﴾ استفهام تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم ؟ ألم يكن شديداً فظيعاً ؟ ﴿وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على الذين كفروا﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك ، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أنهم أصحاب النار﴾ أي لأنهم أهل النار ، قال الطبري : أي كما حقَّ على الأمم التي كذبت رسلها وحلَّ بها عقابي ، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك لأنهم أصحاب النار[٣] . ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار ، والمؤمنين الأبرار ، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال ﴿الذين يحملون العرشَ ومن حوله يُسبّحون بحمد ربهم﴾ أي هؤلاء العباد المقربون ـ حملةُ العرش ـ ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم ، ممن لا يُحصي عددهم إلا الله ، هم في عبادة دائبة لله ، ينزهونه عن صفات النقص ، ويثنون عليه بصفات الكمال ﴿ويؤمنون به﴾ أي ويصدقون بوجوده تعالى ، وبأنه لا إله لهم سواه ، ولا يستكبرون عن عبادته قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ويؤمنون به﴾ ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله ؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه[٤] ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ أي وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده ، يطلبون من

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٥ . (٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٣ . (٤) تفسير الكشاف ٤/ ١١٨ .

وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

الله المغفرة للمؤمنين قائلين ﴿ربَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً﴾ أي يا ربنا وسعت رحمتُك وعلمك كل شيء قال المفسرون: وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم ـ وهو ثناءٌ قبل الدعاء ـ تعليمُ العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدأون دعاءهم بأدبٍ ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه[١] ﴿فاغفر للذين تابوا واتَّبعوا سبيلك﴾ أي فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي واحفظهم من عذاب جهنم ﴿ربنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتهم﴾ أي أدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها ﴿ومن صلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضاً ليتم سرورهم بهم قال ابن كثير: أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في الجنة بمنازل متجاورة[٢] ﴿إنك أنت العزيزُ الحكيم﴾ أي العزيز الذي لا يُغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿وقهم السيئات﴾ هذا من تمام دعاء الملائكة أي احفظهم يا ربّ من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها ﴿ومن تقِ السيئات يومئذٍ فقد رحمته﴾ أي ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ أي وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.. ولما تحدث عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين فقال ﴿إنَّ الذين كفروا يُنادَون لمقت اللهِ أكبرُ من مقتِكم أنفُسكم﴾ أي تناديهم الملائكة يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع: لبغض الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إذْ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون﴾ أي حين كنتم تُدعون إلى الإيمان فتكفرون كبراً وعتواً قال قتادة: بغضُ الله لأهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه، أكبرُ مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله[٣] ﴿قالوا ربَّنا أمتَّنا اثنتين وأحْيَيْتنا اثنتين﴾ أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال ربَّنا أمتَّنا مرتين، وأحييتنا مرتين ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا ﴿فهلْ إلى خروجٍ من سبيل﴾ أي فهل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتةُ

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ٤٥١. (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٦. (٣) نفس المرجع ٣/ ٢٣٧.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾

الأولى حين كانوا في العدم ، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا ، والحياة الأولى حياة الدنيا ، والحياة الثانية حياةُ البعث يوم القيامة ، فهاتان موتتان وحياتان[1] ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله ، بعد أن عاينوا العذاب ، وقد كانوا يكفرون وينكرون ، ولهذا جاء الجواب ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي اللّٰهُ وحده كفرتُم﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله ، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وإن يُشرك به تؤمنوا﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزّى وأمثالها من الأصنام ، آمنتم وصدَّقتم بألوهيتها ﴿فالحكمُ للّٰهِ العليِّ الكبير﴾ أي فالقضاء لله وحده ، لا للأوثان والأصنام ، ولا سبيل إلى نجاتكم ، لأن الله هو المتعالي على خلقه ، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . . ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين ، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان فقال ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته ، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿ويُنزِّل لكم من السَّماءِ رزقاً﴾ أي وينزِّل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق ، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ أي وما يعتبر ويتعظ بهذه الآيات الباهرة ، إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة ، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق ﴿فادعوا اللهَ مخلصين له الدين﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره ﴿ولو كره الكافرون﴾ هذا للمبالغة أي اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم ، حتى ولو كره الكافرون ذلك ، وغاظهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه ﴿رفيعُ الدرجات﴾ أي عظيم الشأن والسلطان ، صاحب الرفعة والمقام العالي ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم ، الذي هو أعظم المخلوقات ، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله قال ابن كثير : أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، وقد ذُكر أن العرش من ياقوتةٍ حمراء ولا يعلم سعته إلا الله[2] وقال أبو السعود : وكونُ العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي ، تحت ملكوته وقبضة قدرته ، مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه ، في غايةٍ لا غاية وراءها[3] ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه ، ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده ، وإنما سمى الوحي روحاً لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد قال القرطبي : سمّاه روحاً لأن

(١) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ، قالوا وهذه مثل قوله تعالى ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ الآية ؟ (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٨ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥ .

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى﴾

الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح[١] ﴿لِيُنذر يومَ التَّلاق﴾ أي ليخوِّف الرسول الموحَى إليه يوم القيامة الكبرى ، حيث يلتقي العباد جميعاً ليحاسبوا على أعمالهم ، ويلتقي الخلق بالخالق في ساعة الحساب قال قتادة : يلتقي فيه أهل السماء بأهل الأرض ، والخالق والخلق[٢] ﴿يوم هم بارزون﴾ أي يوم هم ظاهرون بادون للعيان ، لا شيء يكنُّهم ولا يظلُّهم ولا يسترهم من جبلٍ أوأكمةٍ أو بناء ، لأنهم في أرض مستوية هي أرض المحشر ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم ولا من سرائرهم وبواطنهم قال الصاوي : والحكمة في تخصيص ذلك اليوم ـ مع أن الله لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام ـ أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان مثلاً لا يراهم الله ، وفي هذا اليوم لا يتوهمون هذا التوهم[٣] ﴿لمنْ المُلك اليوم﴾ ؟ أي ينادي الله سبحانه والناسُ بارزون في أرض المحشر : لمن المُلكُ اليوم ؟ ويسكت الخلائق هيبةً لله تعالى وفزعاً ، فيجيب تعالى نفسه قائلاً ﴿للّهِ الواحدِ القهار﴾ أي لله المتفرد بالملك ، الذي قهر بالغلبة كل ما سواه قال الحسن : هو تعالى السائل وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه[٤] ﴿اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ﴾ أي في ذلك اليوم ـ يوم القضاء والفصل بين العباد ـ تُجازى كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شر ﴿لا ظلم اليوم﴾ أي لا يُظلم أحد شيئاً ، لا بنقص ثواب ، ولا بزيادة عقاب ﴿إن الله سريعُ الحساب﴾ أي سريعٌ حسابه ، لا يشغله شأنٌ عن شأن ، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقتٍ واحد قال القرطبي : كما يرزقهم في ساعةٍ واحدة ، يحاسبهم كذلك في ساعةٍ واحدة ، وفي الخبر : « لا ينتصف النهارُ حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهلُ النار في النار »[٥] ﴿وأنذرهمْ يومَ الآزفة﴾ أي خوِّفهم ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة قال ابن كثير : « الآزفة » اسم من أسماء القيامة ، سميت بذلك لقربها كقوله تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾[٦] ﴿إذْ القلوبُ لدى الحناجر﴾ أي تكاد قلوبهم لشدة الخوف والجزع تبلغ الحناجر ـ وهي الحلوق ـ مكان البلعوم ﴿كاظمين﴾ أي ممتلئن غماً وحسرةً شأن المكروب قال في التسهيل : معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقةً أو مجازاً عبَّر بهعن شدة الخوف ،والحنجرة هي الحلق[٧] ﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي ليس للظالمين صديقٌ ينفعهم ﴿ولا شفيع يُطاع﴾ اي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي يعلم جلَّ وعلا العين الخائنة بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٩٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٨ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥ .
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٠٠ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٠١ . ومعنى « يقيل » من القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة .
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٣٩ . (٧) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤ .

ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾
* أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا
فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

عباس : هو الرجل يكون جالساً مع الناس ، فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي ويعلم السرَّ المستور تخفيه الصدور ﴿والله يقضي بالحقّ﴾ أي يقضي ويحكم بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يقضون بشيء﴾ أي لا حكم لهم أصلاً فكيف يكونون شركاء لله ؟ قال أبو السعود : وهذا تهكمٌ بهم لأن الجماد لا يقال في حقه يقضي أو لا يقضي[1] ﴿إن الله هو السميعُ البصير﴾ أي هو السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم ﴿أولم يسيرُوا في الأرض﴾ ؟ أي أولم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم﴾ أي فينظروا ما حلَّ بالمكذبين من العذاب والنكال ؟ فإنَّ العاقل من اعتبر بغيره ﴿كانوا هم أشدَّ منهم قوةً﴾ أي كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وآثاراً في الأرض﴾ أي وأقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله ﴿وما كان لهم من اللهِ من واقٍ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله ، ولا يقيهم من عقابه . . ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال ﴿ذلك بأنَّهم كانت تأتيهم رسلُهم بالبيِّنات﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فكفروا فأخذهم الله﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمَّرهم ﴿إنه قويٌّ﴾ أي إنه تعالى قويٌّ لا يُقهر ، ذو قوة عظيمة وبأسٍ شديد ﴿شديدُ العقاب﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه ، وعذابه أليم وجيع ، أعاذنا الله من عقابه وأجارنا من عذابه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين . . إلى . . أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٦) .

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار من العذاب والدمار ، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب ، وبياناً لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين ، ثم ذكر

(١) تفسير أبي السعود ٥/٧ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه ، وهي مواقف بطولية مشرّفة في وجه الطغيان .

اللغــة : ﴿استحيوا﴾ استبقوا بناتهم على قيد الحياة ﴿ضلال﴾ ضياع وبطلان ﴿عُذتُ﴾ اعتصمت وتحصنتُ والتجأت ﴿ظاهرين﴾ غالبين مستعلين ﴿بأس الله﴾ عذابه وانتقامه ﴿دأب﴾ عادة وشأن ﴿التناد﴾ يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر ، أو لمناداة الناس بعضهم بعضاً قال أمية بن الصَّلت :

وبثَّ الخلق فيها إذ دحاها فهم سكّانُها حتى التَّنادِ[1]

﴿عاصم﴾ مانع ودافع ﴿صرحاً﴾ قصراً وبناءً عظيماً عالياً ﴿تباب﴾ خسران وهلاك ﴿لا جرم﴾ حقاً ولا محالة ﴿حاق﴾ نزل وأحاط .

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، وبالبرهان البيِّن الظاهر وهو معجزة اليد والعصا ﴿إلى فرعونَ وهامان وقارون﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار ، ووزيره هامان ، وقارون صاحب الكنوز والأموال قال في البحر : وخصَّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر ، ولأنهما أشهر أتباع فرعون[2] ﴿فقالوا ساحرٌ كذّاب﴾ أي فقالوا عن موسى إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات ، كذّاب فيما ادعاه أنه من عند الله ، وصيغة كذّاب للمبالغة ﴿فلما جاءهم بالحقِّ من عندنا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقه ، والتي أيَّده الله بها ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾ أي اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا ، واستبقوا الإناث للخدمة قال الصاوي : وهذا القتلُ غيرُ الأول ، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد ، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه ، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقُمَّل والدم والطوفان ، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم[3] ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسرانٍ وهلاك ، لأن الله لا يُنجح سعيهم ﴿وقال فرعونُ ذروني أقتل موسى﴾ أي قال فرعون الجبار : اتركوني حتى أقتلْ لكم موسى ﴿وليدع ربَّه﴾ أي وليناد ربه حتى يخلصه مني ، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول : لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى ، وغرضُه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعايةً لقلوب أصحابه قال أبو حيان : والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد

(١) القرطبي ١٥/ ٣١٠ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٥٩ . (٣) حاشية الصاوي ٤/ ٦ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

استيقن أنه نبيٌ ، وأن ما جاء به آياتٌ باهرة وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان فيه خبثٌ وجبروت وكان قتالاً سفاكاً للدماء لأهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه ، ولكنه يخاف إن همَّ بقتله أن يُعاجل بالهلاك ، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفّونه ، وما كان يكفُّه إلا شدةُ الخوف والفزع[١] ﴿إنـي أخاف أنْ يُبـدِّل دينكُـم﴾ أي إني أخشى أن يغيّر ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أوْ أنْ يُظهـر فـي الأرضِ الفســاد﴾ أي أو أن يثير الفتن والقلاقـل في بلدكم ، ويكون بسببه الهرجُ ، وهذا كما قال المثل « صـار فرعـون واعظـاً »[٢] ﴿وقـال موسـى إنـي عُـذتُ بربي وربكـم﴾ أي إني استجرتُ بالله واعتصمتُ به ليحفظني ﴿مـن كـل متكبـرٍ لا يؤمن بيـوم الحســاب﴾ أي من شر كل جبارٍ عنيد متكبر عن الإيمان بالله ، لا يصدِّق بالآخرة قال في التسهيل : وإنما قال ﴿من كل متكبر﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره ، وليكون فيه وصفٌ لغير فرعون بذلك الوصف القبيح[٣] ﴿وقـال رجـلٌ مؤمـنٌ من آلِ فرعـون يكتُـمُ إيمانه﴾ قال المفسرون : كان هذا الرجل ابن عم فرعون وكان قبطياً يخفي إيمانه عن فرعون ، فلما سمع قول الجبار متوعداً موسى بالقتل نصحهم بقوله ﴿أتقتـلون رجـلاً أن يقـول ربـي اللـهُ﴾ استفهام إنكاري للتبكيت عليهم أي أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال : ربـيَ الله من غير تفكـرٍ ولا تأملٍ في أمره ؟ ﴿وقـد جاءكم بالبينات من ربـكـم﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وإن يـك كاذباً فعليـه كذبُـه﴾ أي إن كان كاذباً في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه قال القرطبي : ولـم يكن ذلك لشكٍ منه في رسالته وصدقه ، ولكنْ تلطفاً في الاستكفاف ، واستنزالاً عن الأذى[٤] ﴿وإنْ يـكُ صادقاً يُصبكـم بعـضُ الـذي يعدُكـم﴾ أي وإن كان صادقاً في دعواه أصابكم بعضُ ما وعدكم به من العذاب ﴿إنَّ اللـهَ لا يهـدي من هـو مُـسرفٌ كـذَّاب﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرفٌ في الضلال ، مبالغ في الكذب على الله قال الإمام الفخر : وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى لأن الله هداه وأيده بالمعجزات ، وتعريضٌ بفرعون في أنه مسرفٌ في عزمه على قتل موسى ، كذَّاب في إقدامه على ادعاء الإلهية ، والله لا يهدي من هذا شأنه

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٥٩ . (٢) قال في الظلال « هل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضالُّ عن موسى تلك المقالة ؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث ، لإثارة الشبهات في وجه الإيمان الهادىء ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان ، على توالي الزمان واختلاف المكان ، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين » . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥ .
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٠٧ .

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾

وصفته ، بل يبطله ويهدم أمره[1] وقال في البحر : هذا نوعٌ من أنواع علم البيان يسميه علماؤ نا « استدراج المخاطب » وذلك أنه لما رأى فرعونَ قد عزم على قتل موسى ، وقومه على تكذيبه ، أراد الانتصار له بطريق يُخفي عليهم بها أنه متعصبٌ له ، وأنه من أتباعه ، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال ﴿أتقتلون رجلاً﴾ ولم يذكر اسمه بل قال رجلاً ليوهمهم أنه لا يعرفه ، ثم قال ﴿أن يقول ربي اللهُ﴾ ولم يقل رجلاً مؤ مناً بالله أو هو نبيُ الله ، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله ، ثم أتبعه بقوله ﴿وإن يك كاذباً﴾ فقدَّم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله ﴿وإن يك صادقاً﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال ﴿ يُصبْكم بعضُ الذي يعدكم﴾ ولم يقل كلُّ ما يعدكم ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له ، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدّقه ، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدّق له وهو قوله ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب﴾ وفيه تعريضٌ بفرعون ، إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله ، إذْ ادعى الألوهية والربوبية[2] ﴿يا قوم لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين في الأرض﴾ كرر النصح مع التلطف والمعنى : أنتم غالبون عالون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ أي فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله قال الرازي : وإنما قال ﴿ينصرنا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه كان يُظهر لهم أنه منهم ، وأنَّ الذي ينصحهم به هو مشاركٌ لهم فيه[3] . . وهنا تأخذ فرعون العزةُ بالإثم ، ويستبدُّ به الجبروت والطغيان ﴿قال فرعونُ ما أُريكم إلاَّ ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم برأيٍ سوى ما ذكرتُه من قتل موسى حسماً لمادة الفتنة ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وقال الذي آمنَ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عُذّب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مثل دأب قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم ﴿والذين من بعدهم﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وما اللهُ يريدُ ظلماً للعباد﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب قال الزمخشري : أي إن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم ، ومن كان بعيداً عن إرادة الظلم ، كان عن الظلم أبعد[4] ﴿ويا قوم إني أخافُ عليكم يومَ التَّناد﴾ خوَّفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا والمعنى إني أخاف عليكم من ذلك

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٥٩ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٦١ (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٥٩ . (٤) تفسير الكشاف ٤/ ١٢٨ .

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ﴾

اليوم الرهيب يوم الحشر الأكبر ، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دعوا هنالك ثُبوراً﴾ ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم قال المفسرون : إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم ، فيرجعون إلى مكانهم فتتلقفهم جهنم ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿ومن يضلل اللهُ فما له من هاد﴾ أي ومن يضلله اللهُ فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿ولقد جاءكم يوسفُ من قبلُ بالبينات﴾ أي ووالله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به﴾ أي فلم تزالوا شاكين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله قال المفسرون : المراد آباؤكم وأصولكم ﴿حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهّي والتمني من غير حجة ولا برهان لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف قال أبو حيان : وليس هذا تصديقاً لرسالة يوسف ، كيف وما زالوا في شك منه ، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق ، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته[1] ﴿كذلك يُضلُّ اللهُ منْ هو مُسرفٌ مرتاب﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يُضلُّ الله كل مسرفٍ في العصيان ، شاكٌ في الدين ، بعد وضوح الحجج والبراهين ﴿الذين يجادلون في آياتِ اللهِ بغير سُلطانٍ أتاهم﴾ هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن والمعنى الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ أي عظُم بغضاً عند الله وعند المؤمنين جدالُهم بغير برهان قال في البحر : عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الإسم الغائب ، لحسنِ محاورته لهم واستجلاب قلوبهم ، لئلا يفجأهم بالخطاب ، وفي قوله ﴿كبُر مقتاً﴾ ضربٌ من التعجب والاستعظام لجدالهم ، كأنه خارج عن حدِّ أمثاله من الكبائر[2] ﴿كذلك يطبعُ اللهُ على كلِّ قلبِ متكبر جبَّار﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان ، متجبر على العباد ، حتى لا يعقل الرشاد ، ولا يقبل الحق ، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما ، وهو سلطان الأعضاء ، فمتى فسد فسدت ﴿وقال فرعونُ يا هامان ابن لي صرْحاً﴾ أي قال فرعون لوزيره هامان ابن لي قصراً عالياً ، وبناءً شامخاً منيفاً قال القرطبي : لما قال مؤمن آل فرعون ما

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٦٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ٧/ ٤٦٥ .

ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح[1] ﴿لعلي أبلغ الأسباب* أسبابَ السموات﴾ أي لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السموات وما يؤدي إليها ، وكررها للتفخيم والبيان[2] ﴿فأطَّلعَ إلى إله موسى﴾ أي فأنظر إلى إله موسى نظر عيان ﴿وإني لأظنه كاذباً﴾ أي وإني لأعتقد موسى كاذباً في ادعائه أن له إلهاً غيري قال أبو حيان : وبلوغُ أسباب السموات غير ممكن ، لكنَّ فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه ، ولما قال ﴿فأطّلع إلى إله موسى﴾ كان ذلك إقراراً بالإله فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿وإني لأظنه كاذباً﴾[3] ﴿وكذلك زُيّن لفرعون سوءُ عمله﴾ أي ومثل ذلك التزيين زُيّن لفرعون عمله السيء حتى رآه حسناً ﴿وصُدَّ عن السبيل﴾ أي ومُنع بضلاله عن طريق الهدى ﴿وما كيدُ فرعون إلا في تبَاب﴾ أي وما تدبير فرعون ومكره إلا في خسار وهلاك ، خسر ملكه في الدنيا بالغرق ، وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد﴾ كرَّر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون ، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة ، وشوَّقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذَّرهم من عذاب الله ومعنى الآية : امتثلوا يا قوم أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الفوز والنجاة ـ طريق الجنة ـ ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ﴾ أي ليست الدنيا إلا متاعاً زائلاً ، لا ثبات له ولا دوام ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ أي وإن الدار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود ، التي لا زوال لها ولا انتقال منها ، فإما خلود في النعيم ، أو خلود في الجحيم قال القرطبي : ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان[4] ﴿من عمل سيئةً فلا يُجزى إلا مثلها﴾ أي من عمل في هذه الدنيا سيئةً فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة ، رحمة منه تعالى بالعباد ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن فعل في الدنيا العمل الصالح سواءً كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حساب﴾ أي فأولئك المحسنون يدخلون جنات النعيم ، ويعطون جزاءهم بغير تقدير ، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً من الله وكرماً ، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسناتُ دون السيئات قال ابن كثير : ﴿بغير حساب﴾

(١) القرطبي ١٥/٣١٤ . (٢) قال صاحب الكشاف : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها . إهـ الكشاف ٤/٦٦ .
(٣) البحر المحيط ٧/٤٦٥ . (٤) تفسير القرطبي ١٥/٣١٧ .

* ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾

أي لا يتقدر بجزاء ، بل يثيبه الله ثواباً كثيراً عظيماً ، لا انقضاء له ولا نفاد[1] ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ ؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان ، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار ؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول : أنا أتعجب من حالكم هذه ، أدعوكم إلى النجاة والخير ، وتدعونني إلى النار والشر ؟ ثم وضَّح ذلك بقوله ﴿تدعونني لأكفر باللـهِ وأُشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي تدعونني للكفر بالله ، وأن أعبد ما ليس لي علمٌ بربوبيته ، وما ليس بإلهٍ كفرعون ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، العزيز الذي لا يُغلب ، الغفَّار لذنوب العباد ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه﴾ أي حقاً إنما تدعونني لعبادته ﴿ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي لا يصلح أن يُعبد لأنه لا يستجيب لنداء داعيه ، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وأنَّ مردَّنا إلى الله﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كـلاً بعمله ﴿وأنَّ المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيخلَّدون في النار ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب ، وهو تهديد ووعيد ﴿وأُفوِّضُ أمري إلى الله﴾ أي أتوكل على الله ، وأسلِّم أمري إليه قال القرطبي : وهذا يدل على أنهم هدَّدوه وأرادوا قتله[2] ﴿إنَّ الله بصيرٌ بالعباد﴾ أي مطلع على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فوقاه اللهُ سيئاتِ ما مكروا﴾ أي فنجاه الله من شدائد مكرهم ، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وحاقَ بآل فرعون سوءُ العذاب﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب ، وهو الغرق في الدنيا ، والحرق في الآخرة ، ثم فسَّره بقوله ﴿النارُ يُعرضون عليها غُدُواً وعشياً﴾ أي النار يُحرقون بها صباحاً ومساء قال المفسرون : المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿ويوم تقوم الساعةُ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة : ادخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا .

قال الله تعالى : ﴿وإذ يتحاجون في النار . . إلى . . وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ من آية (٤٧) إلى نهاية آية (٦٦)

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٤٥ . (٢) القرطبي ١٥/ ٣١٨ .

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى ما حلَّ بآل فرعون من العذاب والدمار ، ذكر بعده النزاع والخصام الذي يكون بين أهل النار ، واستغاثة المجرمين ، وهم في عذاب الجحيم يصلون سعيرها فلا يجابون ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته ، لإقامة الحجة على المشركين .

اللغة : ﴿يتحاجون﴾ يختصمون ﴿خزنة﴾ جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿داخرين﴾ أذلاء صاغرين ﴿تؤفكون﴾ تُصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قراراً﴾ مستقراً ﴿أسلم﴾ أذل وأخضع .

التفسير : ﴿وإذْ يتحاجون في النار﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل ، إنا كنا لكم في الدنيا أتباعاً كالخدم ننقاد لأوامركم ، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار﴾ ؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءاً من هذا العذاب الذي نحن فيه ؟ قال الرازي : علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل الرؤساء ، وإيلام قلوبهم ، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات[1] ﴿قال الذين استكبروا إنّا كلٌ فيها﴾ أي قال الرؤساء جواباً لهم : إنَّا جميعاً في نار جهنم ، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إنَّ الله قد حكم بين العباد﴾ أي قضى قضاءً مبرماً لا مردَّ له ، بدخول المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم﴾ لما يئس أهل النار بعضهم من بعض التجأوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف قال البيضاوي : وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لخزنة جهنم﴾ بدلاً من « لخزنتها » للتهويل والتفظيع[2] ﴿أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ أي أدعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قالوا أولمْ تكُ تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ ؟ أي أجابتهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع : ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم ؟ ﴿قالوا بلى﴾ أي قال الكفار بلى جاءونا ﴿قالوا فادعوا﴾ أي قالت لهم الملائكة : فادعوا اللهَ أنتم فإنا لا نجترىء على ذلك قال الرازي : وليس قولهم ﴿فادعوا﴾ لرجاء المنفعة ، ولكنْ للدلالة على الخيبة ، فإن الملائكة المقربين إذا لم يُسمع دعاؤهم ، فكيف يسمع دعاء الكفار[3] ؟ ثم يصرِّحون لهم

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٧٤ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ١٥٤ . (٣) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٧٤ .

﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ﴾

بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون ﴿وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلال﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي لأن دعاء الكافرين ما هو إلا في خسار وتبار ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿ويوم يقوم الأشهادُ﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد ، من مَلَك ونبي ومؤمن قال الرازي : الآية وعدٌ من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة[١] ﴿يوم لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم قال ابن جرير : لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل[٢] ﴿ولهم اللعنةُ﴾ أي الطردُ من رحمة الله ﴿ولهم سوءُ الدار﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير قال ابن عباس : ﴿سوء الدار﴾ سوءُ العاقبة ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ أي والله لقد أعطينا «موسى بن عمران» ما يُهتدى به في الدين ، من المعجزات والصحف والشرائع[٣] ﴿وأورثنا بني إسرائيلَ الكتاب﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو « التوراة » ﴿هُدىً وذكرى لأولي الألباب﴾ أي هادياً وتذكرةً لأصحاب العقول السليمة ﴿فاصبرْ إنَّ وعدَ الله حقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء ، حقٌّ لا يمكن أن يتخلف ، لأن الله لا يخلف الميعاد قال الإمام الفخر : لما بيَّن تعالى أنه ينصر رسله ، وضرب المثال في ذلك بحال موسى ، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فاصبرْ إنَّ وعد الله حقٌّ﴾ والمراد أنَّ الله ناصرك كما نصرهم ، ومنجزٌ وعده لك كما أنجزه في حقهم[٤] ﴿واستغفرْ لذنبك﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل ، قال الصاوي : والمقصودُ من هذا الأمر تعليم الأمة ذلك ، وإلا فرسول الله ﷺ معصومٌ من الذنوب جميعاً ، صغائر وكبائر قبل النبوة وبعدها على التحقيق[٥] وقال ابن كثير : وهذا تهييجٌ للأمة على الاستغفار[٦] ﴿وسبِّحْ بحمد ربك بالعشيِّ والإبكار﴾ أي ودمْ على تسبيح ربك في المساء والصباح قال الرازي : والمرادُ منه الأمرُ بالمواظبة على ذكر الله ، وألاَّ يفتر اللسان عنه ، حتى يصبح في زمرة الملائكة الأبرار ، الذين ﴿يسبّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون﴾ والمرادُ بالتسبيح تنزيهُ اللهِ عن كل ما لا يليق به[٧] ، ثم نبه تعالى إلى السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال ﴿إنَّ الذين يجادلون في آيات الله﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٧٥ . (٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٢ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢ . (٤) التفسير الكبير ٢٧/ ٧٧ .
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ١١ . (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٤٨ . (٧) التفسير الكبير ٢٧/ ٧٨ .

أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿بغير سلطانٍ أتاهم﴾ أي بلا برهانٍ ولا حجةٍ من الله ﴿إنْ في صدورهم إلا كبرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبرٌ وتعاظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿ما هم ببالغيه﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك ﴿فاستعذْ بالله إنَّهُ هو السَّميع البصير﴾ أي فالتجىءْ وتحصَّنْ بالله من كيدهم ، فإن الله يدفع عنك شرهم ، لأنه هو السميعُ لأقوالهم العليمُ بأحوالهم . . ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال ﴿لخلقُ السَّموات والأرض أكبرُ من خلقِ النَّاس﴾ اللام لام الابتداء أي لخلقُ الله للسمواتِ والأرضِ وإنشاؤُهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر ، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أحقر وأهون ؟ قال في التسهيل : والغرض الاستدلال على البعث ، لأن الإله الذي خلقَ السمواتِ والأرض على كبرها ، قادرٌ على إعادة الأجسام بعد فنائها[1] ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم ، ولفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيءُ﴾ أي ولا البرُّ والفاجر﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً قال ابن كثير : والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار ، والكفرة الفجار ، ما أقلَّ ما يتذكر كثيرٌ من الناس[2] ؟ ﴿إنَّ الساعةَ لآتيةٌ لا ريب فيها﴾ أي إن القيامة آتيةٌ لا محالة ، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها ، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي : والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة[3] ﴿وقالَ ربُّكمْ ادعُوني أستجِبْ لكم﴾ أي ادعوني أجبْكم فيما طلبتم ، وأعطكم ما سألتم قال ابن كثير : ندب تعالى عباده إلى دعائه ، وتكفَّل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرماً[4] ﴿إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي إنَّ الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . . ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته ، ما يلزم منه إفراده

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٨ . (٢) ابن كثير ٣/ ٢٤٩ من المختصر . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٨٠ . (٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء العبادة قال القرطبي والمعنى : وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . . الخ وما أثبتناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

بالعبادة والشكر فقال ﴿اللهُ الذي جعلَ لكم الليلَ لتسكنوا فيه والنَّهار مُبْصراً﴾ أي الله جل وعلا بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئاً لتتصرفوا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إن الله لذو فضلٍ على الناس﴾ أي إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله على إحسانه، ويجحدون فضله وإنعامه ﴿ذلكم اللهُ ربُكم خالقُ كلِّ شيء﴾ أي ذلكم المتفرد بالخلق والإنعام هو الله ربكم، خالق كل الأشياء ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود في الوجود سواه ﴿فأنَّى تُؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادة الخالق المالك إلى عبادة الأوثان؟ ﴿كذلك يُؤفكُ الذين كانوا بآياتِ اللهِ يجحدُون﴾ أي كذلك يُصرف عن الهدى والحق الذين جحدوا بآيات الله وأنكروها قال الصاوي: وهذه تسلية للنبي ﷺ والمعنى لا تحزن يا محمد على إنكار قومك فإن من قبلهم فعل ذلك[١]، ثم زاد في البيان ودلائل القدرة فقال ﴿اللهُ الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي جعلها مستقراً لكم في حياتكم وبعد مماتكم قال ابن عباس: جعلها منزلاً لكم في حال الحياة وبعد الموت[٢] ﴿والسَّماء بناء﴾ أي وجعل السماء سقفاً محفوظاً، كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم ﴿وصوَّركم فأحْسَن صُورَكم﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، وخلقكم في أحسن الأشكال، متناسبي الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسين تمشون على أربع قال الزمخشري: لم يخلق تعالى حيواناً أحسن صورةً من الإنسان[٣]، وهذه مثل قوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي ورزقكم من أنواع اللذائذ ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي ذلكم الفاعل لهذه الأشياء والمنعم بهذه النعم هو ربكم لا إله إلا هو ﴿فتبارك الله ربُّ العالمين﴾ أي فتعالى وتمجَّد وتقدس ربُّ جميع المخلوقات الذي لا تصلح الربوبية إلاَّ له ﴿هو الحيُّ لا إلهَ إلا هو﴾ أي هو تعالى المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، الباقي الذي لا يموت، لا إله سواه ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة والطاعة ظاهراً وباطناً قائلين ﴿الحمد للهِ ربِّ العالمين﴾ أي الثناء والشكر لله مالك جميع المخلوقات، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً، ولما بيَّن صفات الجلال والعظمة، نهى عن عبادة غير الله

(١) حاشية الصاوي ١٣/٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٨٤ . (٣) الكشاف ١٣٧/٤ .

* ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾

فقال ﴿قل إني نهيتُ أنْ أعبُد الَّذين تدْعُون من دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة التي تعبدونها من الأوثان والأصنام قال الصاوي : أمر تعالى نبيه أن يخاطب قومه بذلك زجراً لهم ، حيث استمروا على عبادة غير الله ، بعد ظهور الأدلة العقلية والنقلية[1] ﴿لمَّا جاءني البيِّناتُ من ربّي﴾ أي حين جاءتني الآيات الواضحات من عنده ، الدالة على وحدانيته قال الرازي : والبيناتُ هي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة ، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به ، وأن جعل الحجارة المنحوتة والأخشاب المصورة ، شركاء له في المعبودية مستنكرٌ في بديهة العقل[2] ﴿وأُمرتُ أن أُسلم لرب العالمين﴾ أي وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده ، وأن أخلص له ديني ، وأطهّر نفسي من عبادة غيره .

* * *

قال الله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم . . إلى . . وخسر هنالك الكافرون﴾
من آية (٦٦) إلى آية (٨٥) نهاية السورة

المناسبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية ، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس ، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة ، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال .

اللغَة : ﴿الأغلال﴾ القيود جمع غُلٍّ وهو القيد يجمع اليد إلى العنق ﴿الحميم﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يُسجرون﴾ توقد بهم النار يقال : سجر التنور أوقده ﴿تمْرحون﴾ تبطرون وتأشرون ﴿مثوى﴾ مأوى ومكان إقامة ، من ثَوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿خلت﴾ مضت .

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ

التفسِير : ﴿هو الذي خلقكم من ترابٍ ثم من نطفة ثم من علقة﴾ هذا بيانٌ للأطوار التي مرَّ بها خلقُ الإنسانِ أي هو جل وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم ، فخلق أصلكم آدم من تراب ، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المنيُّ ، ثم من علقة وهي الدم الغليظ ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثم لتبلغوا أشدَّكم﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل،وهو سنُّ الأربعين ﴿ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي ثم لتصبحوا في سنِّ الهرم والشيخوخة قال الإمام الفخر : رتَّب تعالى عمر الإنسان على ثلاث مراتب : الطفولة ، وبلوغ الأشد ، والشيخوخة ، وهذا ترتيب مطابق للعقل ، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النمّاء والنشوء وهو المسمى

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١٣/٤ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٨٥/٢٧ .

لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ
يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ

بالطفولة ، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف ، وهذا بلوغ الأشد ، ثم يبدأ بالتراجع ويبدأ فيه الضعف والنقص ، وهذه مرتبة الشيخوخة[١] ﴿ومنكم من يُتوفَّى من قبل﴾ أي ومنكم من يُتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السقْطُ وقال مجاهد : من قبل سنِّ الشيخوخة ﴿ولتبْلُغُوا أجلاً مُسمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدِّد لكل شخص وهو الموتُ ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أي ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقولُ له كنْ فيكون﴾ أي فإذا أراد أمراً من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء ، وإنما يوجد فوراً دون تأخير قال أبو السعود : وهذا تمثيلٌ لكمال قدرته ، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمرٌ ومأمور[٢] . . ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال ﴿ألمْ ترَ إلى الَّذين يجادلون في آياتِ الله أنَّى يُصرفون﴾ الاستفهام للتعجيب أي ألا ترى أيها السامع وتعجبْ من حال هؤلاء المكابرين ، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة ، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ؟ ثم بيَّنهم بقوله ﴿الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرْسلنا به رُسُلنا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن ، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إذ الأغْلالُ في أعناقهم والسلاسلُ﴾ أي حين يدخلون النار ، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسحبون في الحميم ثم في النار يُسْجرون﴾ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحارِّ المسخَّن بنار جهنم ، ثم يُوقدون ويحرقون فيها قال ابن كثير : ومعنى الآية أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية ، يسحبونهم على وجوههم تارةً إلى الحميم ، وتارة إلى الجحيم كما قال تعالى ﴿يطوفون بينها وبين حميم آنٍ﴾[٣] ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ أي ثم قيل لهم تبكيتاً : أين هم الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله ؟ ﴿قالوا ضلُّوا عنَّا﴾ أي فيقولون : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بل لم نكنْ ندعوا من قبلُ شيئاً﴾ أي بل لم نكن نعبد شيئاً قال المفسرون : جحدوا عبادتهم ، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كذلك يُضلُّ اللهُ الكافرين﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضلُّ الله كل كافر ﴿ذلكُم بما كُنتُم

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٨٥ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٥١ .

تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ

تفرحون في الأرض بغير الحقّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تظهرونه في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات ﴿وبما كنتم تمْرحون﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم قال الصاوي : وهذا وإن كان ذماً في الكفار ، إلا أنه يجرُّ بذيله على كل من توسَّع في معاصي الله ، فله من هذا الوعيد نصيب[1] ﴿أدخلوا أبواب جهنَّم خالدين فيها﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها أبداً ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي بئست جهنم مقراً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله ، المعرضين عن دلائل الايمان والتوحيد ، وإنما قال ﴿مثوى المتكبرين﴾ ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين وهو مقتضى النظم ، لأن الدخول لا يدوم ، وإنما يدوم المثوى ولذا خصه بالذمِّ ﴿فاصبرْ إنَّ وعدَ اللّهِ حقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، فإن وعد الله بتعذيبهم كائنٌ لا محالة قال الصاوي : هذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعدٌ حسن بالنصر له على أعدائه[2] ﴿فإمَّا نرينَّك بعض الذي نعِدُهُم﴾ أي إنْ أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب ، وجواب الشرط محذوفٌ تقديره فذلك هو المطلوب ، أو لتقرَّ به عينُك ﴿أو نتوفينَّك فإلينا يُرجعون﴾ أي أو نتوفينَّك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم ، فإلينا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشدَّ الانتقام ، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسليةً له عليه السلام فقال ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ أي والله لقد بعثنا يا محمد رسلاً كثيرين قبلك ، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجادلهم قومهم وكذبوهم فتأسَّ بهم في الصبر على ما ينالك قال القرطبي : عزَّاه تعالى بما لقيت الرسلُ من قبله[3] ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصُص عليك﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم ، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله﴾ أي وما صحَّ ولا استقام لرسولٍ من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله ، وهذا ردٌّ على قريش حيث قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فإذا جاء أمر اللهِ قُضيَ بالحقّ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمّى لعذابهم أهلكهم الله ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أي خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت ، ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه فقال ﴿اللهُ الذي جعل لكم الأنعامَ﴾ أي الله جلَّ وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له ، هو الذي سخَّر لكم هذه الأنعام « الإبل والبقر والغنم » وخلقها لكم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٤ . (٢) حاشية الصاوي ٤/ ١٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٣٤ .

لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

ولمصلحتكم ﴿لتركبوا منها ، ومنها تأكلون﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات ، وتأكلوا من لحومها وألبانها ، ﴿ولكم فيها منافعُ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر ، واللبن والزبد والسمن ﴿ولتبلغوا عليها حاجةً في صدوركم﴾ أي بحمل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وعليها وعلى الفُلك تُحملون﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر ، وعلى السفن في البحرتُحملون ، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿ويُريكم آياتهِ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فأيَّ آياتِ اللّهِ تُنكرون﴾ توبيخٌ لهم على إنكارهم لوحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة والمعنى أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها ؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ الاستفهام إنكاري أي أفلم يسر هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمردين ، وآثار الأمم السالفة قبلهم ، ماذا حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم ؟ ﴿كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرض﴾ أي كانوا أكثر عدداً من أهل مكة ، وأقوى منهم قوة ، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمباني الضخمة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فلم ينفعهم ما كانوا يكسبونه من الأبنية والأموال شيئاً ، ولا دفع عنهم العذاب ﴿فلما جاءتهم رسلُهم بالبينات﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرات ، والآيات الواضحات ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ أي فرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوي ، الخالي عن نور الهداية والوحي ، فرح بطرٍ وأشر ، واغتروا بذلك العلم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي نزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ أي فلما رأوا شدة العذاب وعاينوا أهواله وشدائده قالوا آمنا بالله الواحد الأحد ﴿وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي كفرنا بالأصنام والأوثان التي أشركناها في العبادة مع الله ﴿فلم يكُ ينفعهم إيمانُهم لمّا رأوْا بأْسنا﴾ أيْ فلم يكن ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب ،

لأنه إيمانٌ عن قسر وإلجاء ﴿سنةَ اللّٰه التي قد خلتْ في عبـادِه﴾ أي سنَّ الله ذلك سنةً ماضيةً في العباد ، أنه لا ينفع الإيمان إذا رأوا العذاب ﴿وخسر هنالـك الـكافـرون﴾ أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون بربهم ، الجاحدون لتوحيد خالقهم .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿الذنب . . والتوب﴾ وبين ﴿أمتَّنا . . وأحييتنا﴾ وبين ﴿صادقاً . . وكاذباً﴾ وبين ﴿غدواً . . عشياً﴾ وبين ﴿يحيي . . ويميت﴾ وبين ﴿الأعمى . . والبصير﴾ .

٢ ـ المقابلة ﴿ذلكم بأنه إذا دُعيَ اللهُ وحده كفرتم ، وإن يُشرك به تؤ منوا﴾ فقد قابل بين التوحيد والإشراك ، والكفر والإيمان وكذلك توجد المقابلة بين قوله تعالى ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار﴾ وهذه من المحسنات البديعية .

٣ ـ المجاز المرسل ﴿وينزِّل لكم من السماء رزقاً﴾ أطلق الرزق وأراد المطر لأن الماء سبب في جميع الأرزاق ، فهو من إطلاق المسبَّب وإرادة السبب .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ استعار الأعمى للكافر ، والبصير للمؤ من .

٥ ـ المجاز العقلي ﴿والنهار مبصراً﴾ من إسناد الشيء إلى زمانه ، لأن النهار زمنٌ للإبصار .

٦ ـ الكناية ﴿يلقي الروح من أمره﴾ الروحُ هنا كناية عن الوحي ، لأنه كالروح للجسد .

٧ ـ صيغ المبالغة مثل : « كذَّاب ، جبَّار ، سميع ، بصير ، عليم » الخ .

٨ ـ الجناس الناقص ﴿تفْرحون . . تمْرحون﴾ وكذلك ﴿صوَّركم فأحسن صُوَركم﴾ .

٩ ـ التأكيد بإن واللام ﴿إن الساعة لآتيةٌ﴾ .

١٠ ـ صيغة الحصر ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾ .

١١ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا رسلاً﴾ .

١٢ ـ طباق السلب ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ .

١٣ ـ توافق رءوس الآيات مع السجع البديع ، والكلام الذي يأخذ بالألباب ، انظر روعة البيان ، وتمعَّنْ قول القرآن وهو يتحدث عن مؤ من آل فرعون بذلك البيان الإلهي المعجز ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . .﴾ الخ الآيات الكريمة التي هي أجلى من عقود الجُمان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر »

***

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معَالِيَ السيّد حسَن عبّاس الشربتلي

وجَعَلَهُ وَقْفاً لله تعَالى

يوزع مجاناً ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حَسَن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع